الفصل الثامن

نهاية غرينلاند الاسكندنافية

مقدمة إلى النهاية ■ التصحر ■ ضرر التربة وسطحها
أسلاف الأسكيمو ■ بقاء الأسكيمو ■ علاقات الأسكيمو/ الاسكندنافيون
النهاية ■ أسباب النهاية■

شاهدنا في الفصل الماضي كيف ازدهر المجتمع الاسكندنافي في غرينلاند، وكان ذلك بسبب عدد من العوامل التي أحاطت بنشأته. كان الاسكندنافيون محظوظين لاكتشاف أرض بكر لم يسبق أن تعرضت أشجارها للقطع أو حقولها للرعي من قبل، وكانت مناسبة لاستعمالها مراعي. وصلوا في وقت كان المناخ فيه معتدلاً نسبياً، وإنتاج العلف كافياً في معظم السنين، والبحر الذي يصلهم بأوروبة خالياً من الجليد، ويوجد طلب أوروبي على صادراتهم من عاج فيل البحر، ولا يوجد أمريكيون أصليون في أي مكان قرب المستعمرتين الاسكندنافيتين أو أرض الصيد.

تحولت كل تلك الميزات الأولية تدريجياً ضد الاسكندنافيين، بطرق يتحملون فيها بعض المسؤولية. عندما تغير المناخ، ولم يعد هناك طلب أوروبي على العاج، وأضحى وصول الأسكيمو خارجاً عن إرادتهم؛ كيف تعامل الاسكندنافيون مع تلك التغيرات التي واجهتهم؟ كان تأثيرهم في الطبيعة كله من صنع أيديهم. سنرى في هذا الفصل كيف أن تغير تلك الميزات، وردة فعل الاسكندنافيين عليها، أسهم في وضع حدٍ لاستيطان الاسكندنافيين في غرينلاند.

أضرّ اسكندنافيو غرينلاند ببيئتهم بثلاث طرق على الأقل: تدمير الطبقة النباتية الطبيعية، والتسبب في تعرية التربة، وقص الأعشاب. حالما وصلوا، حرقوا الغابات لتحويل

الأرض إلى مراعٍ، ثم قطعوا بعضاً من الأشجار الباقية من أجل الحصول على ألواح الخشب والحطب. لم تتمُ الأشجار مجدداً نتيجة رعي الماشية ووطء التربة بقوائمها، خاصة في الشتاء عندما كانت النباتات ضعيفة للغاية بسبب عدم نموها آنذاك.

قدّر أصدقاؤنا علماء غبار الطلع تأثير تلك العوامل على الطبقة النباتية الطبيعية بفحص شرائح من رواسب تم الحصول عليها من قاع بحيرات ومستنقعات بعد تحديد عمرها بالكربون الإشعاعي. تم العثور في تلك الرواسب على خمسة مؤشرات بيئية على الأقل: أجزاء نباتية كاملة مثل الأوراق وغبار الطلع، ويفيد كلاهما في تحديد أنواع النباتات التي كانت تنمو قرب البحيرة في ذلك الوقت؛ وجزيئات فحمية، وهي دليل على نشوب حرائق قريبة؛ وقياسات قابلية المغنطة، التي تعكس في غرينلاند بشكل أساس كميات مواد الحديد الممغنطة في الراسب، التي تظهر نتيجة انجراف التربة السطحية بالماء أو الرياح إلى حوض البحيرة؛ وجرف الرمال بالماء أو الرياح بشكل مشابه أيضاً.

قادت دراسات رواسب البحيرات تلك إلى رسم الصورة الآتية عن تاريخ الطبقة النباتية في مزارع الاسكندنافيين: عندما ارتفعت درجات الحرارة في أواخر العصر الجليدي، أظهرت أعداد غبار الطلع أن الأشجار حلت مكان الأعشاب والبردي. أثناء 8000 سنة لاحقة، كانت التغييرات في الطبقة النباتية قليلة للغاية ولم يكن هناك إشارات إلى وجود تصحر أو تعرية –حتى وصل الفايكنغ– ترافق مع ذلك ظهور طبقة من الفحم النباتي الذي نجم عن قيام الفايكنغ بإشعال حرائق لتجهيز مراعٍ لماشيتهم. تناقص غبار طلع أشجار الصفصاف والبتولا، فيما ارتفع غبار طلع الأعشاب، والبردي، والحشائش، ونباتات المراعي التي أدخلها الاسكندنافيون لإطعام حيواناتهم. يشير ارتفاع قيم قابلية المغنطة إلى انجراف التربة السطحية إلى البحيرات، وذلك بعد خسارتها للنباتات التي كانت تحميها سابقاً من التعرية نتيجة الرياح والمياه. أخيراً، انجرفت الرمال تحت التربة السطحية أيضاً لدى تعرية كل الوديان من غطائها النباتي وتربتها. انعكست كل تلك التغيرات، بما في ذلك عودة الغطاء النباتي، بعد انتهاء استيطان الفايكنغ في بداية القرن الثالث عشر. أخيراً، ظهرت المجموعة نفسها من التغيرات التي رافقت وصول

الاسكندنافيين مجدداً بعد سنة 1924 عندما أعادت حكومة الدانمرك الأغنام إلى غرينلاند بعد خمسة قرون من خروجها منها مع مالكيها الفايكنغ.

ماذا في ذلك؟ – ربما يسأل متشكك بيئي. ذلك نبأ حزين لأشجار الصفصاف، لكن ماذا عن الناس؟ تبين أنه كان للتصحر، وتعرية التربة وقص الأعشاب عواقب وخيمة على الاسكندنافيين، فكانت النتيجة الأبرز للتصحر أن الاسكندنافيين سرعان ما فقدوا أخشاب البناء، كما حدث مع الأيسلنديين وأهل منغريفا. ولم تعد جذوع أشجار الصفصاف، والبتولا، والعرعر القصيرة والنحيلة الباقية مناسبة سوى لصنع أدوات منزلية خشبية صغيرة. للحصول على قطع أكبر من الخشب تدخل في بناء المنازل، والقوارب، والمطارق، والجدران والأسرّة، اعتمد الاسكندنافيون على ثلاثة مصادر: أخشاب سيبيرية التي كانت تطفو على سطح الماء وتصل إلى الشواطئ، وألواح الأخشاب المستوردة من النرويج، والأشجار التي يقطعها أهل غرينلاند أنفسهم أثناء رحلاتهم إلى ساحل لابرادور (ماركلاند) الذي تم اكتشافه أثناء استكشاف فنلاند. بقيت ألواح الخشب نادرة جداً وكان يتم إعادة تصنيع الأدوات الخشبية بدلاً من إتلافها. يمكن استنتاج ذلك من غياب ألواح الخشب الكبيرة والأثاث في معظم أنقاض اسكندنافيي غرينلاند عدا المنازل الأخيرة في المستعمرة الغربية. في موقع أثري شهير في المستعمرة الغربية يدعى «مزرعة تحت الرمال»، بقي سالماً تقريباً تحت رمال الأنهار المتجمدة، كانت معظم ألواح الخشب التي تم العثور عليها موجودة في الطبقات العليا وليست السفلى، مما يشير مجدداً إلى أن ألواح خشب الغرف والأبنية القديمة كانت أثمن من أن يتم إتلافها، وتُستعمل لتجديد أو إضافة غرف جديدة. تعامل الاسكندنافيون أيضاً مع افتقارهم لألواح الخشب باللجوء إلى التراب (اللِبن) لبناء جدران الأبنية، لكننا سنرى أن ذلك الحل كان ينطوي على مشكلاته الخاصة به.

مشكلة أخرى لإجابة «ماذا في ذلك؟» عن التصحر هي: الافتقار إلى الحطب. بخلاف الأسكيمو، الذين تعلموا استعمال شحم الحيتان لتدفئة وإضاءة مساكنهم، تدل بقايا مواقد الاسكندنافيين على أنهم استمروا في حرق الصفصاف والحور في

منازلهم. وكان هناك طلب إضافي رئيس على الحطب، لا يفكر فيه معظم سكان المدينة المعاصرين أمثالنا، ينجم عن احتياجات مزارع الألبان. والحليب مصدر طعام سريع العطب وربما يكون خطيراً: إنه مغذٍ للغاية، ليس لنا فقط ولكن للبكتريا أيضاً، التي تفسده بسرعة إذا تركه المرء دون تعقيم وتبريد، وهذا ما نعدّه اليوم أمراً مسلماً به فيما كان الاسكندنافيون مثل كل شخص آخر في أوقات غابرة لا يعرفون عنه شيئاً. لهذا كان ينبغي غسيل الأواني التي يستعملها الاسكندنافيون لجمع وتخزين الحليب وصناعة الجبن بالماء المغلي باستمرار، ومرتين يومياً فيما يخص دلاء الحليب. ومن ثمّ كان حلب الحيوانات في الحظائر الصيفية (تلك التي يتم بناؤها في التلال) محصوراً بارتفاعات أقل من 1300 قدم، لأن الحطب لم يكن متوافراً على ارتفاعات أعلى، على الرغم من أن أعشاب الرعي المناسبة بوصفها طعاماً للماشية كانت تنمو على ارتفاعات أعلى كثيراً تصل إلى 2500 قدم. نعرف أنه في كل من آيسلندة والنرويج كان ينبغي إغلاق الحظائر الصيفية لدى استهلاك الحطب المحلي، وينطبق الشيء نفسه على غرينلاند أيضاً. كما عوضوا ندرة الخشب، استبدل الاسكندنافيون بالحطب النادر مواداً أخرى، مثل حرق عظام الحيوانات، والسماد والأعشاب. لكن كانت لتلك الحلول مساوئها أيضاً: كان يمكن استعمال العظام والسماد بخلاف ذلك لتخصيب الحقول لزيادة الإنتاج، وكان حرق الأعشاب يعني تدمير المراعي.

تضمنت العواقب الوخيمة الأخرى للتصحر، إلى جانب نقص الأخشاب والحطب، نقص الحديد. حصل الاسكندنافيون على معظم حديدهم من المستنقعات – أي استخراج المعدن من رواسب المستنقعات الفقيرة بهذا الفلز. يتوافر حديد المستنقعات نفسه في غرينلاند، كما هي الحال في آيسلندة واسكندنافيا: رأيت وكريستيان كيلر مستنقعاً بلون الحديد في غاردار في المستعمرة الشرقية، وشاهد توماس مكغوفرن مثل تلك المستنقعات في المستعمرة الغربية. ليست هناك مشكلة في العثور على حديد المستنقعات في غرينلاند وإنما في استخراجه، لأن ذلك يتطلب كميات كبيرة من الأخشاب لصنع الفحم الذي تنتج عنه النار الضرورية التي تكون حرارتها عالية جداً. حتى عندما تخطى أهل غرينلاند

تلك الخطوة باستيراد قوالب لصب الحديد من النرويج، كانوا ما يزالون بحاجة للفحم لتحويل الحديد إلى فولاذ؛ وشحذ، وإصلاح وإعادة صنع الأدوات المعدنية، وهو ما كان ينبغي لهم فعله باستمرار.

نعرف أن أهل غرينلاند امتلكوا أدوات معدنية وعملوا على الحديد. يوجد في العديد من مزارع غرينلاند الاسكندنافية الكبيرة بقايا محال حدادة وخبث فلز الحديد، على الرغم من أن ذلك لا يؤكد: هل تمت الاستفادة من تلك المحال في العمل على الحديد المستورد أم استخراج حديد المستنقعات؟. تم العثور في مواقع أثرية لفايكنغ غرينلاند على نماذج من الأدوات المعدنية المعتادة التي كانت توجد في أي مجتمع اسكندنافي في القرون الوسطى، بما في ذلك رؤوس فؤوس، ومناجل، وسكاكين، وأدوات جز الأغنام، ومسامير السفن، ومساحج النجارين، ومثاقب، ومخارز.

لكن تلك المواقع نفسها أوضحت أن أهل غرينلاند كانوا بحاجة ماسة للحديد، حتى بمعايير اسكندنافيا في القرون الوسطى، حيث لم يكن الحديد متوافراً بكثرة. على سبيل المثال، تم العثور على مسامير وأدوات حديدية في بريطانية ومواقع الفايكنغ في شتلاند، وحتى في مواقع ضمن آيسلندة وموقع لانز أو ميدوز في فنلاند، أكثر من غرينلاند. كانت المسامير الحديدية شائعة جداً في لانز أو ميدوز، وتم العثور على الكثير منها أيضاً في مواقع في آيسلندة على الرغم من افتقار الأخيرة للخشب والحديد. لكن نقص الحديد كان شديداً في غرينلاند. كما تم العثور على بعض المسامير الحديدية في أدنى الطبقات الأثرية هناك، ولم تكن هناك أي منها تقريباً في الطبقات اللاحقة، لأن الحديد أضحى ثميناً جداً ولا يمكن التفريط به. ولم يتم العثور على سيف واحد، أو درع، أو حتى قطعة منها في غرينلاند؛ وتم العثور على قطعتين فقط من درع واقية للجسد ربما تعودان للثوب نفسه. كان يتم إعادة استعمال وشحذ الأدوات المعدنية حتى تبلى تماماً. على سبيل المثال، دُهشت عندما عثرت في تنقيبات وادي كورلورتك على قطع سكين كان نصلها قد بلي عن آخره، وكان لا يزال معلقاً بقبضة يمثل طولها كل السكين، لكن الواضح أنها كانت قيمة بما يكفي ليتم شحذها مراراً.

افتقار أهل غرينلاند للحديد واضح أيضاً من عدّة أشياء تم العثور عليها في مواقعهم الأثرية، التي كان يتم صنعها في أوروبة بشكل روتيني من الحديد فيما صنعها أهل الجزيرة من مواد أخرى، غالباً ما كانت غير متوقعة. تضمنت تلك الأشياء مسامير خشبية ونصال سهام من قرون الأيائل. تصف حوليات آيسلندة لسنة 1189 كيف أن سفينة من غرينلاند كانت قد أبحرت إلى آيسلندة لم تكن مساميرها مصنوعة من حديد وإنما من أوتاد خشبية تم شدّها معاً بعظم فك الحوت. على أي حال، فيما يخص الفايكنغ الذين كانت صورتهم الذاتية تركز على ترويع الخصوم بالتلويح ببلطة ضخمة، لا بد أن النزول إلى مستوى صنع ذلك السلاح من عظام الحوت كان أمراً بالغ الإذلال.

كانت إحدى نتائج افتقار أهل غرينلاند للحديد انخفاض كفاية العمليات الرئيسة لاقتصادهم. مع توافر عدد قليل من المناجل الحديدية، والسواطير، وأدوات الجز، أو الاضطرار إلى صنع تلك الأدوات من العظام أو الحجارة، كان الأمر يتطلب المزيد من الوقت لحصد العلف، وذبح حيوان وجز صوف خروف، على التوالي. لكن النتيجة الحاسمة المباشرة كانت أن الاسكندنافيين خسروا، بخسارة الحديد، تفوقهم العسكري على الأسكيمو. في أماكن أخرى من العالم، أثناء معارك كثيرة بين المستوطنين الأوروبيين والشعوب المحلية التي التقوا بها، منحت السيوف والدروع الفولاذية الأوروبيين تفوقاً كبيراً. على سبيل المثال، أثناء الغزو الإسباني لإمبراطورية الإنكا في البيرو سنتي 1532 - 1533، وقعت خمس معارك قضى فيها 169، و80، و30، و110 و40 إسبانياً على التوالي على جيوش من آلاف إلى عشرات آلاف الإنكا، دون أن يلقى إسباني واحد حتفه وتعرض قليل منهم لإصابات – لأن سيوف الإسبان الفولاذية كانت تستطيع اختراق دروع الهنود القطنية، وكانت دروع الإسبان الفولاذية تستطيع حمايتهم من ضربات أسلحة الهنود الحجرية أو الخشبية. لكن ليس هناك دليل على امتلاك اسكندنافيي غرينلاند بعد الأجيال القليلة الأولى أسلحة أو دروعاً فولاذية، عدا تلك الدرع الفولاذية التي تم العثور على أجزائها، التي ربما كانت تعود لأوروبي زائر على متن سفينة أوروبية وليس إلى أحد سكان غرينلاند. بدلاً من ذلك، كانوا يقاتلون باستعمال القوس، السهم، والرماح كما يفعل الأسكيمو تماماً. ليس هناك أيضاً أي دليل على أن اسكندنافيي غرينلاند استعملوا

خيولهم في معارك فرسان، وهي التي منحت ميزة حاسمة للغزاة الإسبان الذين قاتلوا الإنكا والأزتك، وهو ما افتقر إليه أقرباؤهم الاسكندنافيون بكل تأكيد. افتقر اسكندنافيو غرينلاند أيضاً للتدريب العسكري المحترف. وانتهى الأمر بهم إلى وضع لا يمتلكون فيه أي ميزة عسكرية على الأسكيمو مهما كانت -كانت لذلك عواقب محتملة على مصيرهم سنراها لاحقاً-.

أدّى تأثير الاسكندنافيين في الطبقة النباتية الطبيعية إلى تركهم دون خشب، ووقود وحديد. أدّى الشكلان الرئيسان الآخران من التأثير، في التربة والأعشاب، إلى تركهم دون أرض مفيدة. رأينا في الفصل 6 كيف فتحت هشاشة تربة آيسلندة البركانية الخفيفة الباب أمام مشكلات كبيرة لتعرية التربة. على الرغم من أن تربة غرينلاند ليست حسّاسة جداً كما هي حال تربة آيسلندة، إلا أنه يمكن مع ذلك تصنيفها بأنها هشّة نسبياً بالمعايير العالمية، لأنه ينتج عن موسم النمو القصير في غرينلاند انخفاض نسبة نمو النباتات، وبطء تشكل التربة وتراكم طبقات سطحية رقيقة عليها. وينجم عن بطء نمو النباتات أيضاً انخفاض محتوى التربة من المواد العضوية والطمي، وهي مكونات التربة التي تحفظ الماء وتحافظ على رطوبة التربة. لهذا كانت الرياح المتكررة القوية تجفف التربة بسهولة في غرينلاند.

بدأت عملية تعرية التربة في غرينلاند مع قص وحرق غطاء الأشجار والأعشاب، التي تؤثر في تماسك التربة أكثر من الحشائش. بعد ذهاب الأشجار والأعشاب، ترعى الماشية ولا سيما الأغنام الحشائش التي لا تنمو مجدداً في مناخ غرينلاند إلا ببطء شديد. حالما يتم القضاء على غطاء الحشائش وكشف التراب، تحمل الرياح القوية التربة بعيداً، وتسهم في ذلك أيضاً الأمطار الغزيرة، إلى أن يتم نقلها مسافة أميال بعيداً عن وادٍ بأكمله. في المناطق التي يصبح فيها الرمل مكشوفاً، كما في وديان الأنهار على سبيل المثال، تذروه الرياح بعيداً.

توثق العينات المأخوذة من البحيرات والتربة تطور تعرية التربة الخطيرة في غرينلاند بعد وصول الاسكندنافيين، وجرف الرياح والماء للتربة السطحية ثم الرمال إلى البحيرات.

على سبيل المثال، في موقع لمزرعة اسكندنافية مهجورة مررت بها عند مصب ممر كوروك البحري، باتجاه مجرى نهر جليدي، كانت الرياح العاتية قد حملت الكثير من التربة بعيداً ولم يبق سوى الحجارة فقط. والرمال التي تذروها الرياح شائعة جداً في مزارع الاسكندنافيين: بعض المزارع المهجورة في منطقة فاتناهفير في مغطاة برمال ارتفاعها عشر أقدام.

تضمنت الطرق الأخرى، إلى جانب تعرية التربة، التي جعل بها الاسكندنافيون عن غير قصد منهم أرضهم غير صالحة، قص الأعشاب لاستعمالها في الأبنية وحرقها بدلاً من الوقود، بسبب نقص ألواح الخشب والفحم لديهم. تم تشييد كل أبنية غرينلاند تقريباً من الطبقة العليا من التراب، مع أساس حجري في أحسن الأحوال إضافة إلى بعض الألواح الخشبية لدعم السقف. كانت أدنى ست أقدام فقط من كاتدرائية سان نيكولاس في غاردار مصنوعة من الحجارة، وفوقها تراب ممزوج بالأعشاب، مع سقف تدعمه عوارض خشبية وواجهة من ألواح خشبية. وعلى الرغم من أن كنيسة هفالسي كانت استثناءً بجدرانها المصنوعة كلها من الحجارة، إلا أن سقفها كان مغطى بالأعشاب. وكانت الجدران الترابية في غرينلاند سميكة (تصل إلى ست أقدام!) حتى تكون عازلة للبرودة.

يُعتقد أن منزلاً سكنياً كبيراً في غرينلاند كان يستهلك نحو 10 فدانات من التربة. علاوة على ذلك، كانت الحاجة تبرز لاستعمال تلك الكمية أكثر من مرة، لأن التربة تتحلل تدريجياً، لهذا ينبغي «إعادة بناء» المنزل بعد عدة عقود. أشار الاسكندنافيون إلى عملية تحضير التربة من أجل البناء بأنها «نهب الحقول»، وهو وصف جيد للضرر الحاصل على ما كانت سابقاً أراضي رعي. كان بطء نمو الأعشاب من جديد في غرينلاند يعني أن الضرر سيدوم وقتاً طويلاً.

مجدداً، ربما يجيب متشكك عندما يعرف بشأن تعرية التربة واقتلاع الطبقة السطحية: «ماذا في ذلك؟». الإجابة بسيطة: تذكر أنه بين جزر الأطلسي الاسكندنافية، كانت غرينلاند حتى قبل تأثير البشر فيها الأبرد بينها، ومن ثمّ الأقل ملائمة لنمو العلف والمراعي، والأكثر عرضة لخسارة الغطاء النباتي نتيجة الرعي الجائر، ووطء الحيوانات له، والتعرية وقص الأعشاب. ينبغي أن يكون للمزرعة منطقة رعي تكفي على الأقل العدد

الأدنى من الحيوانات المطلوبة لتقديم عدد مواليد يكون مساوياً لتلك التي تموت أثناء الشتاء، قبل حلول الشتاء المقبل الطويل. تشير التقديرات إلى أن خسارة ربع مساحة الرعي فقط في المستعمرة الغربية أو الشرقية كان كافياً لخفض عدد القطيع إلى ما دون تلك العتبة الضرورية. هذا ما يبدو أنه حدث فعلاً في المستعمرة الغربية، وربما في المستعمرة الشرقية أيضاً.

كما كانت الحال في آيسلندة، بقيت المشكلات البيئية التي أحاطت بالاسكندنافيين في القرون الوسطى مصدر قلق في غرينلاند المعاصرة. على مدى خمسة قرون بعد انقراض الاسكندنافيين من غرينلاند في القرون الوسطى، لم يكن في الجزيرة ماشية لدى الأسكيمو ثم في ظل الحكم الاستعماري البرتغالي. أخيراً، في سنة 1915، قبل إجراء دراسات معاصرة عن تأثيرات البيئة في القرون الوسطى، أدخل الدانمركيون الأغنام الآيسلندية على أساس تجريبي، وأقام أول مربٍّ للأغنام مزرعة في براتاهيلد سنة 1924. وتم اختبار إمكانية تربية الأبقار أيضاً والتخلي عنها لأنها تتطلب الكثير من العمل.

تربي اليوم نحو 65 عائلة في غرينلاند الأغنام بوصفها عملاً رئيساً لها، ونتج عن ذلك ظهور مشكلتي الرعي الجائر وتعرية التربة من جديد. وتشير عينات بحيرات غرينلاند إلى تغييرات بعد سنة 1924 مثل تلك التي حدثت بعد سنة 985 ميلادية: انخفاض في غبار طلع الأشجار، وزيادة في غبار طلع الأعشاب والحشائش، وزيادة في كمية التربة السطحية التي انجرفت إلى البحيرات. بعد سنة 1924، كان يتم ترك الأغنام خارج الحظائر في الشتاء لترعى بنفسها عندما يكون الطقس معتدلاً. تسبب ذلك بأضرار في وقت كانت فيه الطبقة النباتية أقل قابلية للنمو من جديد. أشجار العرعر حساسة بشكل خاص، لأن كلاً من الأغنام والخيول ترعاها في الشتاء عندما لا يتوافر شيء آخر للأكل. عندما وصل كريستيان كيلر إلى براتاهيلد سنة 1976، كان العرعر ما يزال ينمو هناك، لكن أثناء زيارتي سنة 2002 لم أرَ إلا عرعراً يابساً فقط.

بعد أن تضورت أكثر من نصف أغنام غرينلاند جوعاً حتى الموت في الشتاء البارد لسنة 1966-1967، أنشأت الحكومة «محطة تجارب غرينلاند» لدراسة تأثيرات البيئة في الأغنام بمقارنة عينات الطبقة النباتية والتربة في المراعي التي تتعرض لرعي جائر،

تلك التي يكون فيها الرعي قليلاً، والحقول المحاطة بسياج لإبعاد الأغنام عنها. تضمن جزء من ذلك البحث الطلب من علماء الآثار دراسة التغيرات التي طرأت على المراعي في أوقات وجود الفايكنغ. نتيجة للمعرفة المتراكمة عن هشاشة غرينلاند، قام أهل الجزيرة بوضع سياج حول مراعيهم وأبقوا الأغنام داخل حظائر لإطعامها طوال الشتاء. تم بذل جهود لزيادة كميات العلف المتوافرة في الشتاء بتسميد المراعي الطبيعية، وزراعة الشوفان، والجاودار، وعشبة البرك (ذنب القط) وأعشاب أخرى غير محلية.

على الرغم من تلك الجهود، لا تزال تعرية التربة مشكلة كبيرة في غرينلاند اليوم. على طول ممرات المستعمرة الشرقية البحرية، رأيت مناطق من الحصى والحجارة الصمّاء، الخالية تماماً من الطبقة النباتية نتيجة رعي الأغنام. أثناء السنوات الـ25 الأخيرة، كانت الرياح العاتية قد عملت على تعرية أرض المزرعة الحديثة في موقع مزرعة الاسكندنافيين القديمة عند مدخل وادي كورلورتوك، ومن ثمّ قدّمت لنا أنموذجاً لما حدث في تلك المزرعة قبل سبعة قرون. على الرغم من أن حكومة غرينلاند ومربّي الأغنام أنفسهم يفهمون الضرر بعيد الأمد الذي تسببه الأغنام، إلا أنهم يشعرون أيضاً بالحاجة إلى تقديم وظائف في مجتمع نسبة البطالة فيه عالية. المفارقة أن تربية الأغنام في غرينلاند ليست مثمرة حتى على المدى القصير: ينبغي أن تدفع الحكومة لكل عائلة تربي الأغنام نحو 14.000 دولار كل سنة لتغطية خسائرها، وتزويدها بدخل كافٍ وحثّها على الاستمرار بعملها مع الأغنام.

أدى الأسكيمو دوراً رئيساً في قصة نهاية غرينلاند الفايكنغ. كانوا هم الفرق الأكبر بين تاريخي الاسكندنافيين في غرينلاند وآيسلندة: كان الأيسلنديون يتمتعون بميزات مناخ أقل قسوة وطرق تجارية أقصر مع النرويج من إخوانهم في غرينلاند، وكانت أوضح ميزة لدى الأيسلنديين عدم تعرضهم لتهديد الأسكيمو. بالحد الأدنى، مثّل الأسكيمو فرصة ضائعة: كانت فرصة فايكنغ غرينلاند في العيش ستصبح أفضل لو أنهم تعلموا من الأسكيمو أو أقاموا علاقات تجارية معهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك. بالحد الأقصى، ربما يكون تهديد الأسكيمو بمهاجمة الفايكنغ أو قيامهم بذلك فعلاً قد أدى

دوراً مباشراً في اختفائهم. الأسكيمو مهمون أيضاً لأنهم يثبتون لنا أن وجود المجتمعات البشرية لم يكن مستحيلاً في غرينلاند القرون الوسطى. لماذا أخفق الفايكنغ أخيراً فيما نجح به الأسكيمو؟

نفكر اليوم في الأسكيمو على أنهم السكان الأصليون لغرينلاند والدائرة القطبية الكندية. في الواقع، كانوا الأحدث في سلسلة من أربعة شعوب على الأقل كانت لها بصماتها الأثرية وهم الذين توسعوا شرقاً عبر كندا وانتهى بهم المطاف في شمال غرب غرينلاند قبل نحو 4000 سنة من وصول الاسكندنافيين. انتشرت موجات متتابعة منهم، وبقيت في غرينلاند قروناً، ثم اختفت وتركت أسئلة خاصة بها عن الانهيارات المجتمعية مشابهة للأسئلة التي يتم طرحها عن الاسكندنافيين، والأناسازي وأهل جزيرة الفصح. على أي حال، لا نعرف سوى القليل عن حالات الاختفاء المبكرة تلك لمناقشتها في هذا الكتاب عدا دورها في تحديد مصير الفايكنغ. على الرغم من أن علماء الآثار كانوا قد منحوا أسماء لتلك الثقافات المبكرة مثل «موقع الاستقلال 1»، «موقع الاستقلال 2»، و«سكاك» بناءً على المواقع التي تم فيها اكتشاف مصنوعاتهم اليدوية،، إلا أن لغات تلك الشعوب والأسماء التي كانت تطلقها على نفسها ضاعت إلى الأبد.

كان أسلاف الأسكيمو المباشرين شعباً يشير إليهم علماء الآثار باسم دورست، من سكنهم في رأس دورست على جزيرة بافن الكندية. بعد أن انتشروا في معظم الدائرة القطبية الكندية، دخلوا غرينلاند نحو سنة 800 قبل الميلاد وشغلوا الكثير من مناطق الجزيرة نحو ألف سنة، بما في ذلك المناطق التي أقام عليها الفايكنغ لاحقاً مستعمراتهم في الجنوب الغربي. لأسباب غير معروفة، هجروا بعد ذلك غرينلاند كلها ومعظم الدائرة القطبية الكندية نحو سنة 300 ميلادية وأعادوا تمركزهم في بعض مناطق كندا. انتشروا مجدداً نحو سنة 700 ميلادية وصولاً إلى لابرادور وشمال غرب غرينلاند، على الرغم من أنهم لم ينتشروا في هذه الهجرة جنوباً إلى مواقع الفايكنغ. وصف المستوطنون الفايكنغ في المستعمرتين الشرقية والغربية رؤيتهم لأنقاض منازل مهجورة فقط، وأجزاء من قوارب جلدية، وأدوات معدنية اعتقدوا أن من هجرها كانوا سكاناً أصليين سابقين يشبهون

أولئك الذين كانوا قد التقوا بهم في أمريكة الشمالية أثناء رحلاتهم إلى فنلاند.

من العظام التي تم العثور عليها في المواقع الأثرية، نعرف أن شعب دورست كان يصطاد مجموعة متنوعة من الحيوانات تختلف تبعاً للموقع والحقب الزمنية: فيل البحر، والفقمة، والأيائل، والدببة القطبية، والثعالب، والبط، والإوز وطيور البحر. كانت هناك تجارة تقطع مسافات بعيدة بين شعب دورست في الدائرة القطبية الكندية، وبين لابرادور وغرينلاند كما هو ثابت من نماذج الأدوات الحجرية التي تم العثور عليها في مواقع تبعد آلاف الكيلومترات عن بعضها. على عكس الأسكيمو الذين جاؤوا بعدهم أو بعض أسلافهم من القطب الشمالي، كان شعب دورست يفتقر للكلاب (ومن ثمّ المزالج التي تجرها الكلاب أيضاً)، ولم يكونوا يستعملون القوس والسهم. بخلاف الأسكيمو، وكانوا يفتقرون أيضاً للقوارب المصنوعة من جلد يتم تثبيته على إطار أساس، ولم يكن بمقدورهم نتيجة ذلك الذهاب إلى البحر لصيد الحيتان. لم يكونوا يستطيعون الحركة بحرية دون وجود مزالج، أو إطعام أعداد كبيرة من السكان دون صيد حيتان. بدلاً من ذلك، كانوا يعيشون في مستعمرات صغيرة تضم منزلاً أو اثنين، ولا تتسع أكثر من 10 أشخاص وعدد قليل من الرجال البالغين. جعلهم ذلك الأضعف بين ثلاث مجموعات من السكان الأمريكيين الأصليين الذين قابلهم الاسكندنافيون: شعب دورست، والأسكيمو والهنود الكنديون. ولهذا السبب، بالتأكيد، شعر الاسكندنافيون في غرينلاند بطمأنينة كافية للاستمرار في زيارة ساحل لابرادور الذي كان يشغله شعب دورست لأكثر من ثلاثة قرون بحثاً عن الخشب، بعد وقت طويل من تخليهم عن زيارة فنلاند الأبعد في جنوب كندا بسبب عدد السكان الكبير من الهنود المعادين لهم هناك.

هل التقى شعبا الفايكنغ ودورست في شمال غرب غرينلاند؟ ليس لدينا إثبات أكيد على ذلك، لكن الأمر يبدو محتملاً، لأن شعب دورست عاش هناك نحو 300 سنة بعد أن استوطن الاسكندنافيون في الجنوب الغربي؛ ولأن الاسكندنافيين كانوا يقومون بزيارات سنوية إلى أرض صيد نوردرستا التي لا تبعد سوى مئات الأميال إلى الجنوب من المناطق التي كان يشغلها دورست، وقاموا برحلات استكشاف أبعد شمالاً. لاحقاً، سأذكر سجلاً

اسكندنافياً واحداً عن التقائهم بالسكان الأصليين الذين ربما كانوا من شعب دورست. يتألف دليل آخر من بعض الأشياء التي كان واضحاً أنها توجد مع الفايكنغ -ولا سيما قطع معدنية يتم استعمالها لصناعة الأدوات- التي تم اكتشافها في مواقع دورست مبعثرة في شمال غرب غرينلاند والدائرة القطبية الكندية. لا نعرف بالطبع هل حصل شعب دورست على تلك الأشياء في لقاءات مباشرة مع الاسكندنافيين، سلمية أو غير ذلك؟ أو هل حصلوا عليها من مواقع اسكندنافية مهجورة؟ مهما يكن الأمر، يمكننا بكل ثقة أن نؤكد أن علاقات الاسكندنافيين مع الأسكيمو كانت قد أصبحت أكثر خطورة من تلك العلاقات السلمية نسبياً مع شعب دورست.

ظهرت ثقافة وتقانة الأسكيمو، بما في ذلك إتقان صيد الحيتان في المحيط، في منطقة مضيق بيرغن في وقت ما قبل سنة 1000 ميلادية. سمحت المزالج التي تجرها الكلاب على الأرض، والقوارب الكبيرة في البحر، للأسكيمو بالسفر ونقل الإمدادات بسرعة أكبر من شعب دورست. عندما أصبح القطب الشمالي أكثر دفئاً في العصور الوسطى وذاب الثلج عن الممرات المائية التي تفصل بين جزر الدائرة القطبية الكندية، تبع الأسكيمو صيدهم من الحيتان عبر تلك الممرات شرقاً عبر كندا، ودخلوا شمال غرب غرينلاند بحلول سنة 1200 ميلادية، وانتقلوا بعدها جنوباً على طول ساحل غرينلاند وصولاً إلى نوردرستا، ثم إلى مقربة من المستعمرة الغربية نحو سنة 1300 ميلادية، والمستعمرة الشرقية نحو سنة 1400.

كان الأسكيمو يصطادون الحيوانات نفسها التي يستهدفها شعب دورست، وربما كانت فعاليتهم أفضل لأنهم امتلكوا (بخلاف أسلافهم الدورست) الأقواس والسهام. لكن اصطياد الحيتان منحهم أيضاً مصدراً رئيساً إضافياً للطعام لم يكن متوافراً سواء لشعب دورست أو الاسكندنافيين. لهذا كان صيادو الأسكيمو يستطيعون إطعام الكثير من الزوجات والأبناء والعيش في مستعمرات كبيرة، كانت تضم غالباً عشرات الأشخاص بما في ذلك 10 أو 20 صياداً ومقاتلاً بالغاً. في أرض الصيد الرئيسة في نوردرستا نفسها، أنشأ الأسكيمو في موقع يدعى سيرمرموت مستعمرة كبيرة ضمت إليها تدريجياً مئات

السكان. تخيل فحسب المشكلة التي شكّلتها تلك المستعمرة لنجاح صيد الاسكندنافيين في نوردرستا إن كانت مجموعة من صياديهم، التي لم يكن يزيد عددها عن بضع عشرات، التقت مثل تلك المجموعة الكبيرة من الأسكيمو وأخفقت في إقامة علاقات طيبة معها.

بخلاف الاسكندنافيين، مثّل الأسكيمو ذروة آلاف السنين من التطور الثقافي لشعوب القطب الشمالي التي تعلمت التأقلم مع ظروفه المناخية. إذاً، لم يكن في غرينلاند الكثير من الأخشاب المناسبة للبناء، والتدفئة، أو إضاءة المنازل أثناء شهور شتاء القطب المظلمة؟ لم تكن تلك مشكلة للأسكيمو: كانوا يبنون أكواخاً جليدية لقضاء الشتاء، ويحرقون شحم الحيتان والفقمة للتدفئة والإضاءة. والقليل من الأخشاب لبناء القوارب؟ مجدداً، لم تكن تلك مشكلة للأسكيمو: كانوا يشدون جلوداً فوق إطار أساس لبناء قوارب الكاياك (صورة 18)، إضافة إلى صنع سفن تدعى أومياك كبيرة بما فيه الكفاية لإخراجها إلى عرض البحر لصيد الحيتان.

على الرغم من أنني قرأت سابقاً عن الصنعة المتقنة لقوارب كاياك الأسكيمو، ومع اعتيادي على قوارب كاياك حديثة مخصصة للتسلية مصنوعة من البلاستيك والمواد المتوافرة بكثرة في العالم الأول، إلا أنني أُصبت بالدهشة عندما رأيت «كاياك» تقليدياً في غرينلاند. ذكّرني ذلك بنسخة مصغرة عن السفن الحربية الطويلة، الضيقة، السريعة من صنف يو-إس-إس أيوا، التي بنتها البحرية الأمريكية أثناء الحرب العالمية الأولى، مع استعمال كل الأخشاب المتوافرة وتزويدها بالمدافع، والأسلحة المضادة للطائرات وغيرها. كان ظهر قارب الكاياك بطول تسع عشرة قدماً، ضئيلاً مقارنة بسفينة حربية، لكنه مع ذلك أطول مما كنت أتخيل، ومزوّد بأسلحته الخاصة: رمح لصيد الحيتان موصول بحبل طويل إلى قبضة في نهايته، ورأس حربة منفصل بطول ستة بوصات تقريباً، متصلة بالقبضة نفسها عبر وصلة، وسهم لرمي الطيور ليس فيه نصل واحد فقط وإنما ثلاث أشواك حادة أيضاً على مقبض السهم في حال أخطأ النصل هدفه، وعدّة قُرب مصنوعة من جلد الفقمة تعمل على جعل حركة الحيتان أو الفقمة أبطأ، وسكين لقتل الحيوان الذي يضربه الرمح. بخلاف السفينة الحربية أو أي وسيلة نقل مائية معروفة لي، كان يتم صنع الكاياك بشكل فردي وفقاً لحجم، ووزن وطول ذراعي الشخص الذي سيستخدمه.

وكان يتم «استهلاكه» من قبل مالكه فعلاً، وكان مقعده مصنوعاً من فرو المالك الذي يكون مضاداً للماء الثلجي الذي قد يدخل إلى القارب. حاول كريستيان كيلر دون جدوى «الاستقرار» في أحد قوارب الكاياك المخصصة لأصدقائه من غرينلاند، ليكتشف فقط أن قدميه لا تدخلان في مكانهما تحت سطح القارب أو أن ساقيه كبيرتان للغاية بحيث لا يمكن إدخالهما في المكان المخصص لهما.

في إستراتيجيات صيدهم المتنوعة، كان الأسكيمو الصيادين الأكثر مرونة وتطوراً في تاريخ القطب الشمالي. إلى جانب صيد الأيائل، وفيل البحر، وطيور اليابسة بطرق لا تختلف عن تلك التي كان الاسكندنافيون يتّبعونها، اختلف الأسكيمو عن الاسكندنافيين باستعمال قوارب الكاياك السريعة لصيد الفقمة ومطاردة الطيور البحرية في المحيط، وفي استعمال قوارب الأومياك والرماح لصيد الحيتان في أعالي البحار. لم يكن يستطيع حتى الأسكيمو قتل حوت موفور الصحة بضربة واحدة، لهذا كان صيد الحيتان يبدأ بضربة رمح من صياد على متن أومياك يقوده رجال آخرون. تلك ليست مهمة سهلة، كما قد يتذكر كل محبي قصص شرلوك هولمز من «مغامرة بيتر الأسود»، وتم فيها العثور على قبطان سفينة متقاعد شرير ميتاً في منزله، مع رمح انغرز في الجدار عبر جسده. بعد قضاء الصباح في محل القصّاب (الجزّار)، حاول عبثاً أن يدفع بنفسه رمحاً في ذبيحة خنزير، واستنتج شرلوك هولمز محقاً أن القاتل يتقن استعمال الرمح، لأن رجلاً غير مدرب لا يمكنه بغض النظر عن قوته دفع رمح في جسد آخر إلى حد بعيد. شيئان جعلا تحقيق ذلك ممكناً للأسكيمو: قبضة رمي الرمح التي توسع من قوس الرمي ومن ثمّ تزيد من قوة رمية الصياد وتأثيرها؛ وكما في حالة الجريمة التي حقق بها شرلوك هولمز، التدريب الطويل. للأسكيمو، كان التدريب يبدأ في الطفولة، وينتج عنه تطوير رجال الأسكيمو لما يدعى قوة رمي الذراع: في الواقع، قوة إضافية في رمي الرمح.

حالما ينغرز رأس الرمح في الحوت، يتم إطلاق الوصلة المصممة بذكاء، مما يسمح للصيادين باستعادة مقبض الرمح المنفصل آنذاك عن رأس الرمح المنغرز في الحوت. بخلاف ذلك، إذا استمر الصياد في الإمساك بالحبل المتصل برأس ومقبض الرمح، سوف يسحب الحوت الغاضب الأومياك وكل من عليه تحت الماء. كان يتصل برأس الرمح

قُرب مصنوعة من جلد الفقمة مملوءة بالهواء التي ترغم الحوت على إبداء مقاومة أكبر مما يصيبه أخيراً بالتعب إذا غاص تحت الماء. عندما يصعد الحوت إلى السطح ليتنفس، يطلق الأسكيمو رمحاً آخر تتصل به قُربة أخرى، لإجهاد الحوت أكثر. فقط عندما يصاب الحوت بالإرهاق، يتجرأ حينها الصيادون على الاقتراب بالأومياك من الوحش وذبحه حتى الموت.

ابتكر الأسكيمو أيضاً تقنية خاصة لصيد الفقمة المطوّقة، وهي أكثر أنواع الفقمة انتشاراً في مياه غرينلاند لكن عاداتها تجعل من صيدها عملية صعبة. بخلاف أنواع فقمة غرينلاند الأخرى، تقضي الفقمة المطوقة الشتاء تحت الجليد، وتفتح فيه ثقوباً للتنفس تكفي فقط لبروز رأسها (لكن ليس كل جسدها). من الصعب ملاحظة الفتحات لأن الفقمة تتركها مغطاة بالثلج. لكل فقمة عدّة فتحات تنفس، تماماً كما يحفر الثعلب جحراً تحت الأرض مع عدّة فتحات تشكل مداخل متنوعة. لا يمكن للصياد إزالة مخروط الثلج عن الفتحة، وإلا ستدرك الفقمة أن شخصاً ينتظرها هناك. لهذا كان الصياد يقف بصبر بجانب المخروط في الظلام البارد للشتاء القطبي، ينتظر ساكناً قدر ما يتطلبه الأمر لسماع صوت فقمة تصل لالتقاط أنفاسها، ثم يحاول طعن الحيوان برمح عبر المخروط الثلجي، دون أن يستطيع رؤيته. عندما تتراجع الفقمة المصابة، ينفصل رأس الرمح عن المقبض لكنه يبقى متصلاً بحبل، يحرره الصياد ويسحبه حتى تصاب الفقمة بالإجهاد ويمكن سحبها إلى الخارج وذبحها. تعلم وإتقان تلك العملية كلها بنجاح صعب، وهو أمر لم يفعله الاسكندنافيون. نتيجة لذلك، في سنوات معينة عندما تراجعت أعداد أنواع الفقمة الأخرى، تحول الأسكيمو إلى اصطياد الفقمة المطوقة، لكن الاسكندنافيين لم يكن لديهم ذلك الخيار، ولهذا تضوروا جوعاً.

إذاً، كان الأسكيمو يتفوقون بتلك الميزات وغيرها على الاسكندنافيين وشعب دورست. أثناء بضعة قرون من توسع الأسكيمو عبر كندا إلى شمال غرب غرينلاند، اختفت حضارة دورست التي هيمنت سابقاً على تلك المنطقتين. لهذا ليس لدينا سر واحد مرتبط بالأسكيمو وإنما اثنان: اختفاء شعب دورست أولاً، ثم الاسكندنافيين؛ وكلاهما بعد وقت

قصير من وصول الأسكيمو إلى أراضيهما. استمر وجود بعض مستعمرات دورست في شمال غرب غرينلاند قرناً أو اثنين بعد ظهور الأسكيمو، وقد كان مستحيلاً ألا يعرف شعب منهما بوجود الآخر، إلا أنه ليس هناك دليل أثري مباشر على وجود اتصال بينهما، مثل أدوات أسكيمو في مواقع دورست تلك المدة أو العكس. لكن هناك دليل غير مباشر على ذلك الاتصال: انتهى الأمر بأسكيمو غرينلاند يتبنون عدّة مزايا من ثقافة دورست التي كانوا يفتقرون إليها قبل وصولهم إلى غرينلاند، بما في ذلك السكين المصنوعة من العظام لقص الكتل الثلجية، والمنازل الجليدية ذات القبة، وتقانة حجر الصابون، وما يدعى رأس رمح الشمال. الواضح أن الأسكيمو لم يحظوا فقط ببعض الفرص للتعلم من شعب دورست وإنما كان لهم دور ما في اختفائهم أيضاً بعد أن عاش الأخير في القطب الشمالي 2000 سنة. يمكن لكل منا أن يتخيل التصوّر الخاص به لنهاية حضارة دورست. التصوّر الذي أتخيله أن شعب دورست تضور جوعاً في شتاء صعب، لهذا هجرت النساء رجالهن وذهبن إلى مخيمات الأسكيمو التي كن يعلمن أن الناس يأكلون فيها الحيتان والفقمة المطوّقة.

ماذا عن العلاقات بين الأسكيمو والاسكندنافيين؟ المفارقة أنه طوال القرون التي اشترك فيها هذان الشعبان بغرينلاند، لم تتضمن حوليات الاسكندنافيين إلا إشارتين موجزتين أو ثلاثاً إلى الأسكيمو.

ربما تشير أولى النصوص الثلاثة في تلك الحوليات إما إلى الأسكيمو أو إلى شعب دورست لأنها تصف حادثة من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، عندما كان شعب دورست لا يزال يقطن شمال غرب غرينلاند، والأسكيمو قد وصلوا لتوهم إلى هناك. يصف «تاريخ النرويج» المحفوظ في مخطوطات القرن الخامس عشر كيف التقى الاسكندنافيون أول مرة بسكان غرينلاند الأصليين: «بعيداً إلى الشمال خلف مستعمرتي الاسكندنافيين، التقى الصيادون شعباً صغيراً، دعوهم البائسين. عندما كانوا يتعرضون لإصابات غير قاتلة، كانت جراحهم تتحول إلى اللون الأبيض ولا ينزفون، لكن عندما يُصابون بجراح قاتلة، ينزفون بشكل متواصل. ليس لديهم حديد، لكنهم يستعملون أنياب فيل البحر قذائف والحجارة الحادة أدوات».

هذا سجل موجز وواقعي، ويشير إلى أن الاسكندنافيين اتخذوا موقفاً «سيئاً» نتج عنه بداية مروّعة مع الشعب الذي كانوا على وشك استيطان غرينلاند معه. كانت «بؤساء» كلمة استعملها الاسكندنافيون على كل المجموعات الثلاث من سكان العالم الجديد الأصليين الذين التقوا بهم في فنلاند أو غرينلاند (أسكيمو، دورست وهنود). لا تشير الكلمة إلى علاقات سلمية أيضاً، لأنه عندما يلتقي أحدهم بشخص من الأسكيمو أو دورست، يحاول طعنه لاكتشاف مقدار ما ينزفه. تذكر أيضاً، من الفصل 6، أنه عندما التقى الاسكندنافيون أول مرة مجموعة من الهنود في فنلاند، استهلوا صداقتهم بقتل ثمانية من أصل تسعة. تفسر تلك العلاقات الأولى بشكل كبير سبب عدم إقامة الاسكندنافيين علاقات تجارية جيدة مع الأسكيمو.

الإشارة الثانية كانت أيضاً موجزة وتتناول دور «البؤساء» في تدمير المستعمرة الغربية نحو سنة 1360 ميلادية، وهو الأمر الذي سآتي على ذكره لاحقاً. لا يمكن أن يكون هؤلاء البؤساء سوى الأسكيمو، لأن شعب دورست كان قد اختفى آنذاك من غرينلاند. الإشارة الباقية عبارة عن جملة واحدة في حوليات آيسلندة لسنة 1379: «هاجم البؤساء أهل غرينلاند، وقتلوا 18 رجلاً، وأسروا صبيين وخادمة جعلوهم عبيداً». إن لم يكن السجل السنوي قد نسب الحادثة خطأً إلى غرينلاند لأن أشخاصاً آخرين (من شعب سامي) نفذوا هجوماً في النرويج، يبدو أن تلك الحادثة وقعت قرب المستعمرة الشرقية، لأن المستعمرة الغربية لم يكن لها وجود سنة 1379، وليس مرجحاً أن تضم فرقة صيد إلى نوردرستا امرأة. كيف يمكن لنا تفسير تلك القصة المقتضبة؟ اليوم، لا يبدو لنا مقتل 18 شخصاً أمراً بالغ الأهمية في هذا القرن من الحروب العالمية التي لقي فيها عشرات ملايين الأشخاص حتفهم. لكننا نعرف أن عدد سكان المستعمرة الشرقية لم يكن يتجاوز 4000 شخص بمجمله، ولهذا يشكل 18 رجلاً نحو 2% من عدد الرجال البالغين. إذا استطاع جيش اليوم مهاجمة الولايات المتحدة، بعدد سكانها البالغ 280.000.000، وقتل رجالاً بالغين بالنسبة نفسها، ستكون النتيجة 1.260.000 قتيل أمريكي. مثّل ذلك الهجوم الوحيد الموثق سنة 1379 كارثة على المستعمرة الشرقية، بغض النظر عن عدد الرجال الذين لقوا حتفهم في هجمات سنوات 1380، 1381 وغيرها.

تلك النصوص الثلاثة الموجزة هي مصادر المعلومات المكتوبة الوحيدة بشأن علاقات الاسكندنافيين/الأسكيمو. تتألف مصادر معلومات علماء الآثار من مصنوعات الاسكندنافيين -أو نسخ عنها- التي تم العثور عليها في مواقع الأسكيمو، وبالعكس أيضاً. تم العثور على ما مجموعه 170 أداة اسكندنافية في مواقع الأسكيمو، ومع أن بعضها كانت كاملة (سكين، ومقص، وأداة لإشعال النار)، إلا أن معظمها كانت مجرد قطع معدن (حديد، أو نحاس، أو برونز أو قصدير) استعملها الأسكيمو لصنع أدواتهم الخاصة. لا توجد مثل تلك الأدوات الاسكندنافية في مواقع الأسكيمو ضمن مناطق كان يعيش فيها الفايكنغ فحسب (المستعمرتين الشرقية والغربية) أو تلك التي كانوا يزورونها باستمرار (نوردرستا)، وإنما في مناطق لم يزرها الاسكندنافيون قطّ أيضاً، مثل شرق غرينلاند وجزيرة إلسمير. لهذا لا بد أن المواد الاسكندنافية كانت ذات فائدة للأسكيمو وانتقلت مقايضة بين مجموعات منهم على بعد مئات الأميال. أما ما يتعلق بالأدوات، فيستحيل علينا أن نعرف إن كان الأسكيمو حصلوا عليها من الاسكندنافيين أنفسهم بمقايضتهم، أوقتلهم أو سرقتهم، أم عبر البحث في مستعمرتي الاسكندنافيين بعد أن هجرهما سكانهما. على أي حال، جاءت عشرٌ من القطع المعدنية من أجراس كنائس المستعمرة الشرقية، التي ما كان الاسكندنافيون ليبيعوها بكل تأكيد. يبدو أن الأسكيمو حصلوا على تلك الأجراس بعد زوال مستعمرتي الاسكندنافيين، وربما عاش الأسكيمو في منازلهم الخاصة التي بنوها ضمن مناطق سكنى الاسكندنافيين.

جاء دليل أقوى على علاقة مباشرة بين الشعبين من تسعة نقوش أسكيمو لأشكال بشرية ليس هناك أي شك بأنها اسكندنافية، كما تدل على ذلك الصفات المميزة لتسريحة الشعر، وملابس الفايكنغ أو أشكال الصليب. تعلم الأسكيمو أيضاً بعض التقانات المفيدة من الاسكندنافيين. على الرغم من أنه يمكن صنع أدوات أسكيمو مثل سكين أو منشار أوروبي على شاكلة أدوات اسكندنافية مسروقة دون وجود اتصال ودّي مع اسكندنافي على قيد الحياة، إلا أن أضلاع البراميل ونصال السهام اللولبية الحادة التي كان يصنعها الأسكيمو تدل على أنهم شاهدوا فعلاً رجالاً اسكندنافيين يصنعون أو يستعملون براميل وسهاماً.

من ناحية أخرى، ليس هناك دليل مماثل على وجود أدوات أسكيمو في مواقع اسكندنافية. مشط من قرن الأيل، وسهم بنصلين، وقبضة حبل سحب عاجية، وقطعة واحدة من الحديد: تلك الأشياء الخمسة هي الحصيلة الإجمالية المعروفة لي في كل أنحاء غرينلاند الاسكندنافية طوال قرون من تعايش الأسكيمو/ الاسكندنافيين. حتى تلك الأشياء لا تبدو ذات قيمة تجارية، ويحتمل أنها قد أثارت اهتمام شخص اسكندنافي ما فقرر الاحتفاظ بها. ما يثير الدهشة الغياب الكامل لكل أدوات الأسكيمو المفيدة التي كان يمكن للاسكندنافيين نسخها لمصلحتهم لكنهم لم يفعلوا ذلك. على سبيل المثال، ليس هناك رمح واحد، أوحربة واحدة، أوكاياك أو أومياك في أي موقع اسكندنافي.

إن كانت علاقات تجارية قد نشأت فعلاً بين الأسكيمو والاسكندنافيين، ربما كانت تتضمن عاج فيل البحر، الذي كان الأسكيمو ماهرين في صيده ويعده الاسكندنافيون أهم صادراتهم إلى أوروبة. لسوء الحظ، سيكون صعباً علينا العثور على دليل مباشر عن مثل تلك التجارة، لأنه ليست هناك طريقة لتحديد هل كان العاج الذي تم العثور عليه في العديد من مزارع الاسكندنافيين جاء من فيلة بحر اصطادها الاسكندنافيون أنفسهم أم الأسكيمو؟ لكننا لا نجد بالتأكيد في مواقع الاسكندنافيين عظام ما أعتقد أنه أهم الأشياء التي قدّمها الأسكيمو للاسكندنافيين: الفقمة المطوّقة، أكثر أنواع الفقمة شيوعاً في غرينلاند أثناء الشتاء، التي كان الأسكيمو يصطادونها بمهارة فيما لم يستطع الاسكندنافيون ذلك، المتوافرة في وقت من السنة يكون فيه الاسكندنافيون للمفارقة يواجهون خطر استنفاد موارد طعامهم أثناء الشتاء والتضور جوعاً. يدلني ذلك على وجود علاقات تجارية في أضيق الحدود، في حال وجودها أصلاً، بين الشعبين. فيما يخص الدليل الأثري على تلك العلاقة، ربما كان الأسكيمو يعيشون أيضاً في كوكب مختلف عن الاسكندنافيين، بدلاً من الاشتراك معهم في الجزيرة وأرض الصيد نفسها. ليس لدينا أيضاً أي دليل عظمي أو جيني على الزواج المختلط بين الأسكيمو والاسكندنافيين. دلت دراسة متأنية لجماجم الهياكل العظمية المدفونة في باحات كنائس الاسكندنافيين في غرينلاند على أنها تشبه جماجم الاسكندنافيين المعاصرين آنذاك وأخفقت في تحديد أي صفة هجينة بينهم وبين الأسكيمو.

مثّل الإخفاق في تطوير علاقات تجارية مع الأسكيمو، وفي التعلم منهم، من وجهة نظرنا خسارة كبيرة للاسكندنافيين؛ على الرغم من أنهم أنفسهم لم يروا الأمر على ذلك النحو. لم يكن ذلك الإخفاق بسبب الافتقار إلى الفرص. لا بد أن الصيادين الاسكندنافيين قد شاهدوا صيادي الأسكيمو في نوردرستا، ثم على الطرف الخارجي لممر المستعمرة الغربية الخارجي عندما وصل الأسكيمو إلى هناك. لابد أن الرجال الاسكندنافيين بقواربهم الخشبية الثقيلة وتقنياتهم في صيد فيل البحر والفقمة أدركوا الميزة المتفوقة لقوارب الأسكيمو الخفيفة وأساليب صيدهم: كان الأسكيمو متفوقين فيما كان الصيادون الاسكندنافيون يحاولون بالضبط القيام به. عندما بدأ مستكشفون أوروبيون لاحقاً زيارة غرينلاند في أواخر القرن الرابع عشر، أدهشتهم مباشرة سرعة وقدرة قوارب الكاياك على المناورة وعلّقوا قائلين إن الأسكيمو يظهرون مثل نصف سمكة، يندفعون في الماء بسرعة أكبر من أي قارب أوروبي. أعجبتهم في الدرجة نفسها قوارب أومياك الأسكيمو، ومهارات صيدهم، ولباسهم وأحذيتهم وقفازاتهم المصنوعة من الجلود، والرماح، والقِرب الهوائية، والمزالج التي تقودها الكلاب وأساليب صيد الفقمة. استفاد الدانمركيون الذين بدؤوا استيطان غرينلاند سنة 1721م من تقانة الأسكيمو مباشرة، واستعملوا الأومياك للسفر على طول ساحل غرينلاند، وأقاموا علاقات تجارية مع الأسكيمو. أثناء بضع سنوات، كان الدانمركيون قد تعلموا عن الرماح والفقمة المطوقة أكثر مما تعلمه الاسكندنافيون في عدّة قرون. كان بعض المستوطنين الدانمركيين نصارى متعصبين احتقروا الأسكيمو الوثنيين تماماً كما فعل الاسكندنافيون في القرون الوسطى.

إذا حاول المرء أن يخمّن دون تحيز شكل علاقات الأسكيمو/ الاسكندنافيين، هناك الكثير من الاحتمالات التي تم إدراكها فعلاً في قرون لاحقة عندما قابل أوروبيون مثل الإسبان، والبرتغاليين، والفرنسيين، والإنكليز، والروس، والبلجيكيين والهولنديين، والألمان والإيطاليين إضافة إلى الدانمركيين والسويديين أنفسهم، شعوباً محلية في أماكن أخرى من العالم. أصبح الكثير من هؤلاء المستوطنين الأوروبيين وسطاء وطوّروا اقتصاديات تجارية متكاملة: استقر التجار الأوروبيون أو زاروا مناطق فيها شعوب أصلية،

وحملوا سلعاً أوروبية يحتاج إليها السكان المحليون، وحصلوا بالمقابل على منتجات محلية تحتاج إليها أوروبة. على سبيل المثال، كان الأسكيمو يحتاجون إلى المعدن كثيراً لدرجة أنهم بذلوا جهوداً كبيرة لصنع أدوات معدنية من حديد نيازك رأس يورك التي كانت قد سقطت في شمال غرينلاند. لهذا يمكن للمرء أن يتخيل تطور تجارة حصل فيها الاسكندنافيون على أنياب فيل البحر، وكركدن البحر، وجلود الفقمة والدببة القطبية من الأسكيمو، وأرسلوا تلك الأشياء إلى أوروبة مقابل الحديد الذي كان الأسكيمو بحاجة إليه. ربما يكون الاسكندنافيون قد زوّدوا الأسكيمو أيضاً بالملابس ومنتجات الألبان: وإذا كان فساد سكر اللبن قد منع الأسكيمو من شرب الحليب نفسه، إلا أنهم ظلوا يستهلكون منتجات الحليب الخالية من سكر اللبن مثل الجبن والزبدة، التي تصدرها الدانمرك إلى غرينلاند اليوم. لم يكن الاسكندنافيون وحدهم الذين يتعرضون لخطر التضور جوعاً في غرينلاند وإنما الأسكيمو أيضاً، الذين كانوا يستطيعون التخفيف من ذلك الخطر وتنويع حميتهم الغذائية بمقايضة ما ينتجونه بمنتجات ألبان الاسكندنافيين. كانت مثل تلك التجارة بين الاسكندنافيين والأسكيمو قد تطورت في غرينلاند بعد سنة 1721: لماذا لم تتطور أصلاً في القرون الوسطى؟

إحدى الإجابات أن العقبات الثقافية قد حالت دون حدوث حالات زواج أو مجرد تعلم بين الاسكندنافيين والأسكيمو. لم تكن زوجة من الأسكيمو مفيدة للاسكندنافي مثل زوجة من أبناء جلدته: ما كان يريده الاسكندنافي من زوجته هو أن تستطيع حياكة وغزل الصوف، ورعاية وحلب الأبقار والأغنام، وصنع لفافات تبغ وزبدة وجبن، وهي الأشياء التي تتعلمها الفتيات الاسكندنافيات وليس الأسكيمو منذ طفولتهن. حتى إذا عقد صياد اسكندنافي صداقة مع صياد من الأسكيمو، لم يكن الاسكندنافي يستطيع ببساطة أن يستعير كاياك صديقه ويتعلم كيف يستعمله، لأن الكاياك كان في الواقع قطعة معقدة وشخصية للغاية من الملابس المرتبطة بقارب، مصنوع ليناسب صياد أسكيمو بعينه من قبل زوجه (بخلاف الفتيات الاسكندنافيات) اللواتي يكنّ قد تعلّمن منذ طفولتهنّ خياطة الجلود. لهذا لم يكن بمقدور صياد اسكندنافي كان قد شاهد كاياك الأسكيمو أن يأتي إلى المنزل ويقول لزوجه «اصنعي لي واحداً منها».

إذا كنت تأمل أن تقنع امرأة أسكيمو بأن تصنع قارب كاياك يناسبك، أو تسمح لك بالزواج من ابنتها، ينبغي أن تقيم صداقة حقيقية مع شعبها في المقام الأول. لكن كنا قد رأينا أن موقف الاسكندنافيين كان «سيئاً» منذ البداية، وأشاروا إلى كل من الهنود الأمريكيين الأصليين في فنلاند والأسكيمو في غرينلاند بأنهم «بؤساء»، وقتلوا أول من التقوا بهم في كلا المكانين. بوصفهم نصارى مرتبطين بالكنيسة، اشترك الاسكندنافيون بمشاعر ازدراء الوثنين التي كانت منتشرة في أوروبة القرون الوسطى.

عامل آخر وراء موقفهم السيء هو أن الاسكندنافيين كانوا قد فكّروا بأنهم سكان نوردرستا الأصليين، وأن الأسكيمو دخلاء. وصل الاسكندنافيون إلى نوردرستا وقاموا بالصيد هناك قبل وصول الأسكيمو عدة قرون. عندما ظهر الأسكيمو أخيراً في شمال غرب غرينلاند، كان مفهوماً اعتراض الاسكندنافيين على دفع ثمن أنياب فيل البحر للأسكيمو لأنهم كانوا يعدون المنطقة خاصة بصيدهم. في الوقت الذي التقوا فيه الأسكيمو، كان الاسكندنافيون أنفسهم بأمس الحاجة للحديد، وكانت تلك السلعة الأثمن التي يمكن أن يقدموها للأسكيمو.

فيما يخصنا نحن المعاصرين الذين نعيش في عالم أقامت فيه كل «الشعوب الأصلية» علاقات مع الأوروبيين عدا بعض القبائل في أجزاء نائية من الأمازون وغينية الجديدة، لا تكون صعوبات إقامة علاقات واضحة تماماً. ما الفعل الذي نتوقعه فعلاً من أول اسكندنافي شاهد مجموعة من الأسكيمو في نوردرستا؟ هل صرخ «مرحباً!»، ومشى نحوهم، وابتسم، وبدأ استعمال لغة الإشارة، وأشار إلى أنياب فيل البحر، وقدّم لهم قطعة من الحديد؟ عبر سياق عملي البيولوجي الميداني في غينية الجديدة، كنت قد عايشت مثل «مواقف اللقاء الأول» تلك، كما تدعى، ووجدتها خطيرة ومرعبة تماماً. يعد السكان «الأصليون» في تلك المواقف الأوروبيين في البداية معتدين ويدركون أن أي متطفل ربما يشكل خطراً على صحتهم، وحياتهم، وأملاكهم. لا يعرف كلا الجانبين ما سيفعله الآخر، يكون كلاهما متوتراً وخائفاً، لا يعرف إن كان عليه الهرب أو البدء باستعمال سلاحه، ويتفحص كلاهما الطرف الآخر بحثاً عن إيماءة يمكن أن تشير إلى أنه يمكن أن يفزع ويستعمل سلاحه

أولاً. يتطلب تحويل موقف لقاء أول إلى صداقة ودودة، فضلاً عن الخروج منه حياً، حذراً وصبراً كبيرين. تراكمت لدى المستوطنين الأوروبيين لاحقاً بعض الخبرة في التعامل مع مثل تلك المواقف، لكن الواضح أن الاسكندنافيين كانوا يستعملون أسلحتهم أولاً.

بالمختصر، واجه دانمركيو القرن الثامن عشر في غرينلاند، وأوروبيون آخرون التقوا شعوباً محلية في أماكن أخرى، المشكلات نفسها التي واجهها الاسكندنافيون: تحيزهم ضد «الوثنيين البدائيين»، والسؤال المتعلق بما يجب فعله: هل عليهم قتلهم أو سلبهم أو التجارة معهم أو الزواج منهم أو الاستيلاء على أراضيهم، ومشكلة إقناعهم بعدم الهرب أو استعمال أسلحتهم؟. تعامل الأوروبيون لاحقاً مع تلك المشكلات بالإبقاء على كل تلك الخيارات وانتقاء ما يناسب منها وفقاً للظروف، بناءً على تفوقهم العددي، وهل لدى رجالهم عدد كافٍ من النساء الأوروبيات ليصبحن زوجات؟ وهل توجد لدى الشعب الأصلي سلع مطلوبة في أوروبة؟، وهل كانت أرض السكان المحليين جذابة لاستيطان الأوروبيين؟. لكن اسكندنافيي القرون الوسطى لم يتعاملوا بتلك الخيارات. نتيجة رفضهم أو عدم قدرتهم على التعلم من الأسكيمو، وافتقارهم للتفوق العسكري عليهم، اختفى الاسكندنافيون وليس الأسكيمو في نهاية المطاف.

غالباً ما يتم وصف استيطان الاسكندنافيين في غرينلاند بأنه «سر غامض». ذلك صحيح، لكن جزئياً فحسب لأنه ينبغي لنا التفريق بين الأسباب غير المباشرة (أي العوامل بعيدة الأمد وراء التراجع البطيء لمجتمع غرينلاند الاسكندنافي) والأسباب المباشرة (أي الضربة التي قصمت ظهر البعير، وموت الأفراد أو إرغامهم على الهجرة من مستعمراتهم). تبقى الأسباب المباشرة وحدها سراً غامضاً، بينما الأسباب غير المباشرة واضحة. تتألف من خمس مجموعات من العوامل كنا قد ناقشناها بالتفصيل: تأثير الاسكندنافيين في البيئة، وتغير المناخ، وتراجع في العلاقات الودّية مع النرويج، وزيادة مستوى العداء مع الأسكيمو، والنظرة المحافظة للاسكندنافيين.

بالمختصر، استنفد الاسكندنافيون عن غير قصد منهم الموارد البيئية التي كانوا يعتمدون عليها بقطع الأشجار، واقتلاع طبقة التربة السطحية، والرعي الجائر، والتسبب

في تعرية التربة. منذ بداية استيطان الاسكندنافيين، لم تكن موارد غرينلاند الطبيعية كافية قطّ لدعم مجتمع رعوي أوروبي كبير، لكن إنتاج العلف في غرينلاند تذبذب بشكل ملحوظ من سنة إلى أخرى. لهذا هدّد ذلك الاستنفاد للموارد الطبيعية بقاء المجتمع في السنوات العجاف. ثانياً: تظهر حسابات المناخ من عينات جليد غرينلاند أنه كان معتدلاً نسبياً (أي كما هو «معتدل» اليوم) عندما وصل الاسكندنافيون، وشهدوا عدّة تحولات من سنوات باردة في القرن الثاني عشر، ثم تراجع في بداية القرن الثالث عشر إلى مدة بارة تدعى العصر الجليدي القصير الذي دام حتى القرن السابع عشر. عمل ذلك على خفض إنتاج العلف بنسبة أكبر، إضافة إلى عرقلة سير السفن بين غرينلاند والنرويج نتيجة الجليد الذي تشكل في البحر. ثالثاً: كانت تلك العقبات أمام النقل إحدى الأسباب فقط في تراجع ثم توقف التجارة أخيراً مع النرويج التي اعتمد عليها أهل غرينلاند للحصول على الحديد، وبعض الأخشاب وهويتهم الثقافية. توفي نحو نصف عدد سكان النرويج عندما ضرب الموت الأسود (وباء الطاعون) البلاد سنتي 1349 - 1350. وأصبحت النرويج، والسويد والدانمرك بقيادة ملك واحد سنة 1397، الذي أهمل النرويج نظراً لأنها أفقر المقاطعات الثلاث. تراجع طلب النحاتين الأوروبيين على عاج فيل البحر؛ صادرات غرينلاند الأساس، عندما منحت الحملات الصليبية أوروبة النصرانية إمكانية الوصول مجدداً إلى عاج فيلة آسية وشرق إفريقية، التي انقطعت عن أوروبة نتيجة استيلاء العرب على شواطئ المتوسط. بحلول القرن الثالث عشر، كان نحت العاج من أي نوع، سواء من حيوانات فيل البحر أو الفيلة، قد أضحى عتيق الطراز في أوروبة. قوّضت كل تلك التغييرات موارد النرويج وحوافزها لإرسال سفن إلى غرينلاند. وكانت شعوب أخرى إلى جانب اسكندنافيي غرينلاند قد اكتشفت بشكل مشابه أن اقتصادياتها (أو بقاءها) ستكون معرضة للخطر عندما يواجه شركاؤها التجاريون الرئيسون مشكلات، ومن بينها نحن الأمريكيين المستوردين للنفط في الوقت الذي حظر فيه الخليج تصدير النفط سنة 1973، وأهل جزيرتي بتكارين وهندرسون في الوقت الذي شهدت فيه منغريفا التصحر، وغيرها كثير. ستؤدي العولمة الحديثة إلى ظهور أمثلة متعددة بالتأكيد. أخيراً، بوصول الأسكيمو، وعدم قدرة أو رغبة الاسكندنافيين على إحداث تغييرات أساسية، كانت العوامل الخمسة خلف زوال مستعمرتي غرينلاند قد اكتملت.

تطورت كل تلك العوامل الخمسة تدريجياً أو عملت أثناء أوقات طويلة. لهذا ينبغي أن لا نتفاجأ عندما نكتشف أن الاسكندنافيين هجروا مزارع مختلفة في أوقات مختلفة قبل الكارثة النهائية. تم العثور على أرضية منزل كبير في أكبر مزرعة بمقاطعة فانتاهفير في في المستعمرة الشرقية على جمجمة رجل يبلغ من العمر 25 سنة تعود حسب الكربون الإشعاعي إلى سنة 1275 ميلادية. يشير ذلك إلى أنه تم إخلاء كل مقاطعة فانتاهفير في في ذلك الوقت، وأن الجمجمة كانت للساكن الأخير، لأن أي ناجين كانوا سيدفنون الرجل الميت بدلاً من ترك جثته على الأرض. يعود آخر تاريخ للكربون الإشعاعي في مجموعة منازل المستعمرة الشرقية في وادي كورلورتوك إلى نحو سنة 1300 ميلادية. تم إخلاء «مزرعة تحت الرمال» في المستعمرة الغربية ودُفنت تحت الرمال نحو سنة 1350 ميلادية.

من بين المستعمرتين الاسكندنافيتين، كانت الأولى التي اختفت اختفاءً كاملاً الشرقية الأصغر حجماً. كانت أقل ملاءمة لتربية الماشية من المستعمرة الغربية، لأن موقعها الأبعد شمالاً كان يعني موسم نمو أقصر، وإنتاج علف أقل بشكل ملحوظ حتى في سنة جيدة، وكان احتمال صيف بارد أو رطب يؤدي إلى انخفاض إنتاج العلف المخصص للحيوانات في الشتاء المقبل أكبر. هناك حالة أخرى عن هشاشة المستعمرة الغربية تتمثل في أنها لا تتصل بالبحر إلا عبر ممر واحد لهذا يمكن لمجموعة معادية من الأسكيمو عند مصب ذلك الممر أن تقطع طريق الوصول إلى الفقمة المهاجرة على طول الساحل التي كان الاسكندنافيون يعتمدون عليها في طعامهم أواخر الربيع.

لدينا مصدران للمعلومات بشأن نهاية المستعمرة الغربية: مكتوب وأثري. الوثائق من وضع قس يدعى إيفار باردارسون الذي أرسله أسقف بيرغن من النرويج إلى غرينلاند ليكون قاضياً وجامع ضرائب ملكياً، ويقدم تقارير عن حالة الكنيسة في غرينلاند. بعد وقت من عودته إلى النرويج نحو سنة 1362م، وضع باردارسون وثيقة تدعى وصف غرينلاند، ضاع نصها الأصلي ولا نعرفه إلا من نسخ لاحقة. يتألف معظم السرد الموجود فيها من قوائم بكنائس وأملاك غرينلاند، وبينها وصف ساخط موجز لنهاية المستعمرة الغربية: «يوجد في المستعمرة الغربية كنيسة كبيرة، تدعى ستنسنز [ساندنز]. كانت تلك الكنيسة وقتاً ما كاتدرائية ومقر الأسقف. يسيطر البؤساء [الأسكيمو] الآن على

المستعمرة الغربية كلها... كل ما سبق رواه لنا إيفار باردارسون من غرينلاند، الذي كان مشرفاً على مؤسسة الأسقف في غاردار في غرينلاند سنوات عديدة، وكان قد رأى كل ذلك، وكان أحد رجال القانون [مسؤول ذو مكانة بارزة] الذين تم اختيارهم للذهاب إلى المستعمرة الغربية للقتال ضد البؤساء، من أجل إخراجهم من المستعمرة الغربية. لم يجدوا عند وصولهم رجالاً، سواء نصارى أو وثنيين ...».

أشعر بأنني أهز جثمان إيفار باردارسون محبطاً من كل الأسئلة التي تركها دون إجابات. أي سنة ذهب إلى هناك، وفي أي شهر؟ هل وجد علفاً مخزناً أو جبناً؟ كيف اختفى ألف شخص، عن بكرة أبيهم؟ هل كانت هناك أي إشارات إلى حدوث قتال، أو حرق مبانٍ، أو موتى؟ لكن باردارسون لا يخبرنا المزيد عن كل ذلك.

بدلاً من ذلك، ينبغي أن نعود إلى اكتشافات علماء الآثار الذين نقّبوا في الطبقة العليا لأنقاض عدّة مزارع في المستعمرة الغربية، التي تضم البقايا التي تركها آخر الاسكندنافيين الذين شغلوها في الشهور الأخيرة من عمر المستعمرة. يوجد في أنقاض تلك المزارع أبواب، وأعمدة، وعوارض سقفية، وأثاث، وقدور، وصلبان، وأشياء خشبية أخرى. ذلك غير عادي: عندما يتم إخلاء أبنية مزرعة عمداً في شمال اسكندنافية، ينبغي عادة تجميع مثل تلك الأدوات الخشبية الثمينة ونقلها لاستعمالها مرة أخرى حيث يستقر مالكو المزرعة، لأن الخشب مادة نادرة. تذكر مخيم الاسكندنافيين في لانز أو ميدوز في نيوفاوندلاند، الذي تم إخلاؤه بشكل مخطط مسبقاً، ولم يكن يحتوي شيئاً قيماً إلا 99 مسماراً مكسوراً، ومسماراً كاملاً واحداً، وإبرة خياطة. الواضح أنه إما تم إخلاء المستعمرة الغربية بسرعة، أو أن سكانها الأخيرين لم يستطيعوا حمل أثاثهم معهم لأنهم ماتوا هناك.

تخبرنا عظام الحيوانات في تلك الطبقات العليا قصة كئيبة. تتضمن: عظام قوائم طيور وأرانب صغيرة، كانت تعد عادة أصغر من أن تستحق صيدها ويتم اللجوء إليها فقط في حالة العوز الشديد للطعام؛ وعظام عجل وحمل صغيرين، وربما يكونان قد ولدا في الربيع الأخير؛ وعظام قوائم عدد من الأبقار يساوي تماماً عدد المرابط في حظيرة

أبقار المزرعة، مما يشير إلى ذبح كل الأبقار وتناول كل شيء فيها حتى القوائم، وهياكل عظمية غير مكتملة لكلاب صيد كبيرة مع علامات سكين على العظام. عظام الكلاب غائبة تماماً بخلاف ذلك في منازل الاسكندنافيين، لأنهم لم يكونوا مستعدين لأكل كلابهم كما هي حالنا نحن اليوم. بقتل الكلاب التي يعتمدون عليها في صيد الأيائل في الخريف، وقتل الماشية الوليدة التي يحتاجونها لإعادة عدد القطيع إلى ما كان عليه، كان آخر السكان يقولون في الواقع إنهم جائعون لدرجة لا يمكنهم فيها التفكير بالمستقبل. في الطبقات الدنيا من أنقاض المنازل، يوجد الذباب آكل الجيف الموجود مع براز الإنسان، من النوع المحب للدفء، لكن الطبقة العليا لا تضم سوى أنواع ذباب تتحمل البرد، مما يشير إلى نفاد الوقود والطعام من السكان المحليين.

تخبرنا كل تلك التفاصيل الأثرية أن السكان الأخيرين في مزارع المستعمرة الغربية تضوروا جوعاً وتجمدوا حتى الموت في الربيع. إما أنها كانت سنة باردة ولم تصل الفقمة المهاجرة إلى أماكن الصيد المعتادة، أو سدّت قطع جليدية ثقيلة الممرات البحرية، أو ربما أعاقت عصبة من الأسكيمو (كانت قد تذكرت كيف طعن الاسكندنافيون أقرباءهم في تجربة لرؤية كمية الدم التي تسيل منهم) الوصول إلى قطعان الفقمة خارج الممرات البحرية. ربما يكون صيف بارد قد تسبب للمزارعين بنقص كمية العلف الضرورية لإطعام الماشية أثناء الشتاء. اضطر المزارعون لقتل أبقارهم الأخيرة، وتناول حتى قوائمها، وقتل وأكل كلابهم والبحث عن الطيور والأرانب. إذا حدث ذلك، ينبغي للمرء أن يتساءل: لماذا لم يجد علماء الآثار أيضاً هياكل عظمية لآخر الاسكندنافيين أنفسهم في تلك المنازل المنهارة؟. أشك بأن إيفار باردارسون أخفق في ذكر أن مجموعة كان يقودها من المستعمرة الشرقية كانت قد نظّفت المستعمرة الغربية ودفنت بطريقة نصرانية أجساد أقربائها – أو أن الناسخ الذي نقل عن باردارسون أغفل تسجيله لعملية التنظيف تلك.

فيما يخص نهاية المستعمرة الشرقية، كانت آخر رحلة إلى غرينلاند من قبل سفينة تجارية ملكية بناءً على وعد من ملك النرويج سنة 1368، وغرقت تلك السفينة في السنة الآتية . بعد ذلك، لدينا سجلات لأربع رحلات فقط إلى غرينلاند (سنوات 1381،

1382، 1385 و1406)، قامت بها كلها سفن خاصة كانت وجهة قادتها أساساً آيسلندة ووصلت غرينلاند عن غير قصد نتيجة انحرافها عن مسارها. عندما نتذكر تأكيد الملك النرويجي على أن التجارة مع غرينلاند حق ملكي، وأن قيام السفن بزيارة غرينلاند عمل غير قانوني، ينبغي أن نعدّ تلك الرحلات الأربع «غير المخططة» مصادفة مذهلة. على الأرجح أن ربان السفينة كان يدّعي أنه دخل منطقة ضباب كثيف وانتهى به الأمر عن طريق الخطأ في غرينلاند، وأن تلك كانت حجة لتسويغ نيته الحقيقية. كان ربابنة السفن يعرفون دون شك حينها بأن سفناً قليلة جداً تزور غرينلاند، وأن سكان الجزيرة بحاجة ماسة لتبادل السلع، وأنه يمكن بيع البضائع النرويجية لأهل غرينلاند وتحقيق ربح كبير. لم يستطع ثورستاين أولافسون، ربان سفينة سنة 1406، أن يشعر بأسى بالغ نتيجة خطئه في الإبحار لأنه قضى نحو أربع سنوات في غرينلاند قبل أن يعود إلى النرويج سنة 1410.

جلب الربان أولافسون معه ثلاثة أنباء من غرينلاند. أولاً: تم إحراق رجل يدعى كولغريم على خازوق سنة 1407 لاستعماله السحر لإغواء امرأة تدعى ستينون، ابنة رجل القانون رافن وزوج ثورغريم سولفاسون. ثانياً: أُصيبت المسكينة ستينون بالجنون وماتت. أخيراً: تزوج أولافسون نفسه من فتاة محلية تدعى سيغريد بجورنسدوتر في كنيسة هفالسي في 14 أيلول 1408، وشهد الزواج براند هالدورسون، وثورد جورندارسون، وثوربورن باردارسون، وجون جونسون، بعد أن تم إعلان خطوبة الثنائي السعيد قبل ثلاثة أسابيع ولم يعترض أحد. كانت تلك الأوصاف المقتضبة للحرق على الخازوق، والجنون، والزواج أموراً اعتيادية في أي مجتمع نصراني أوروبي في القرون الوسطى ولا تشير إلى وقوع مشكلة. إنها آخر الملحوظات المكتوبة المؤكدة عن الاسكندنافيين في غرينلاند.

لا نعرف على وجه الدقة الوقت الذي اختفت فيه المستعمرة الشرقية. أصبح المناخ بين سنتي 1400 و1420 في شمال الأطلسي أبرد واشتدت فيه الرياح، وتوقفت الإشارات إلى قيام سفن بزيارة غرينلاند. يشير تاريخ 1435، الذي تم تحديده بوساطة الكربون الإشعاعي، لثوب امرأة عثر عليه علماء الآثار في مدفن كنيسة هيرجولفسنز إلى أن بعض الاسكندنافيين ربما يكونون بقوا على قيد الحياة بضعة عقود بعد ذهاب آخر سفينة من غرينلاند سنة 1410، لكن ينبغي ألا نعول كثيراً على تاريخ 1435 بسبب عدم الدقة

الإحصائية التي تبلغ عدة، المرتبطة باستعمال الكربون الإشعاعي لتحديد الزمن. لم نعرف شيئاً أكيداً عن زوار أوروبيين آخرين قبل سنتي 1576 - 1587، عندما شاهد المستكشفان الإنكليزيان مارتن فروبشر وجون دايز غرينلاند ونزلا عليها، والتقيا الأسكيمو، وكانا معجبين للغاية بمهارتهم وتقانتهم، قايضوا بضائع معهم واختطفوا عدداً منهم وأخذوهم إلى إنكلترة لعرضهم. انطلقت سنة 1607 بعثة دانمركية – نرويجية خصيصى لزيارة المستعمرة الشرقية، لكن الاسم خدعها وافترضت أنها موجودة على الساحل الشرقي لغرينلاند ولم تجد دليلاً على الاسكندنافيين. منذ ذلك الوقت، وطوال القرن السابع عشر، توقفت المزيد من البعثات الاستكشافية الدانمركية – النرويجية وصيادي الحيتان الهولنديين والإنكليز في غرينلاند واختطفوا المزيد من الأسكيمو، الذين (بشكل غير مفهوم لنا اليوم) يُفترض بهم أن يكونوا قد انحدروا من فايكنغ عيونهم زرقاء وشعرهم أشقر، على الرغم من مظهرهم الجسدي ولغتهم المختلفة تماماً.

أخيراً، أبحر هانز إيجد المبشّر اللوثري (بروتستانتي) النرويجي إلى غرينلاند، وكان مقتنعاً أن الأسكيمو المختطفين كانوا في الواقع كاثوليكاً اسكندنافيين تخلت عنهم أوروبة قبل الإصلاح وتحولوا إلى الوثنية، وأنهم آنذاك متلهفون لمبشّر نصراني ليعتنقوا البروتستانتية. رسا أولاً في الممر البحري للمستعمرة الغربية، حيث وجد لدهشته أشخاصاً كانوا أسكيمو بكل وضوح وليسوا اسكندنافيين، قادوه إلى أنقاض مزارع الاسكندنافيين السابقة. كان إيجد لا يزال مقتنعاً أن المستعمرة الشرقية تقع على ساحل غرينلاند الشرقي، وبحث هناك لكنه لم يجد أدلة على الاسكندنافيين. قاده الأسكيمو سنة 1732 لزيارة المزيد من أنقاض الاسكندنافيين، بما في ذلك كنيسة هفالسي على الساحل الجنوبي الغربي في موقع نعرف الآن أن المستعمرة الشرقية كانت تقوم عليه. أرغمه ذلك على الاعتراف لنفسه أن الاستيطان الاسكندنافي قد اختفى فعلاً، وبدأ بحثه عن تفسير لذلك السر الغامض. جمع إيجد من الأسكيمو ذكريات منقولة شفاهاً عن مدد متعاقبة من العلاقات العدائية والودية مع السكان الاسكندنافيين السابقين، وتساءل إن كان الأسكيمو قد قضوا على الاسكندنافيين. منذ ذلك الحين، تحاول أجيال من الزوار وعلماء الآثار اكتشاف الإجابة.

لنكن واضحين بشأن ما يتضمنه ذلك السر الغامض؛ الأسباب غير المباشرة لانحدار الاسكندنافيين ليست موضع شك، وتعطينا تحقيقات علماء الآثار في الطبقات العليا للمستعمرة الغربية شيئاً عن الأسباب المباشرة للانهيار في السنة الأخيرة هناك. لكن ليست لدينا معلومات موازية بشأن ما حدث في السنة الأخيرة من عمر المستعمرة الشرقية، لأنه لم يتم التنقيب في طبقاتها العليا بعد. بعد أن وصلت القصة إلى هذا الحد، لا يمكنني مقاومة القفز إلى النهاية مع بعض الاستنتاجات.

يبدو لي أن انهيار المستعمرة الشرقية كان مفاجئاً وليس تدريجياً، مثل الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفيتي والمستعمرة الغربية. كان مجتمع الاسكندنافيين في غرينلاند مجموعة متوازنة بدقة من أوراق اللعب التي كانت قدرتها على البقاء تعتمد في نهاية المطاف على سلطة الكنيسة والزعماء. لا بد أن احترام هاتين السلطتين كان قد تراجع عندما توقفت السفن عن المجيء من النرويج وأصبح المناخ أكثر برودة. توفي آخر أسقف لغرينلاند سنة 1378م، ولم يصل أسقف جديد من النرويج ليحل مكانه. لكن الشرعية الاجتماعية في مجتمع الاسكندنافيين كانت تعتمد على الدور المناسب للكنيسة: ينبغي أن يقوم أسقف بتعيين القساوسة، ودون قس لا يمكن للمرء أن يتعمد، أو يتزوج، أو يتم دفنه وفقاً للتقاليد النصرانية. كيف استطاع ذلك المجتمع الاستمرار بتأدية وظائفه عندما توفي آخر قس عينه آخر أسقف؟ بشكل مشابه، كانت سلطة الزعماء تعتمد على امتلاكهم لموارد يوزعونها على أنصارهم في أوقات الشدة. إذا كان الناس في مزارع فقيرة يتضورون جوعاً حتى الموت فيما يعيش الزعيم في مزرعة ثرية مجاورة، هل كان المزارعون الفقراء سيطيعون زعيمهم حتى آخر نفس؟

مقارنة بالمستعمرة الغربية، تقع المستعمرة الشرقية في مكان أبعد جنوباً، وكانت إنتاجيتها من العلف أعلى، ويقطنها عدد سكان أكبر (4000 بدلاً من 1000 فقط)، ولهذا كان خطر انهيارها أقل. كان المناخ البارد سيئاً بالطبع على المدى الطويل على المستعمرة الشرقية والغربية كذلك: كان يتطلب الأمر مدة أطول من السنوات الباردة حتى ينخفض إنتاج العلف ويتضور الناس جوعاً في المستعمرة الشرقية. يمكن للمرء أن يتخيل استنفاد موارد المزارع الأصغر والأكثر فقراً في المستعمرة الشرقية. لكن ما الذي

قد يكون حدث لغاردار، التي كانت حظيرتا الأبقار فيها تتسعان لـ160 بقرة، وفيها قطعان كبيرة من الأغنام؟

أعتقد أن غاردار، في النهاية، كانت مثل قارب نجارة مكتظ بالناجين. عندما أخذ إنتاج العلف يتراجع وماتت كل الماشية أو تم ذبحها وتناول لحومها في المزارع الفقيرة للمستعمرة الشرقية، حاول سكانها شق طريقهم نحو أفضل المزارع التي كان لا يزال فيها بعض الحيوانات: براتاهيلد، وهفالسي، وهيرجولفسنس، وآخرها غاردار. لا بد أن سلطة مسؤولي الكنيسة في كاتدرائية غاردار، أو الزعماء الذين يملكون الأرض هناك، بقيت طالما أنهم -وقوة الرب- يحمون الرعية والأتباع. لكن المجاعة والأمراض المرتبطة بها تسببت بانهيار احترام السلطة، تماماً كما وصف المؤرخ الإغريقي ثوسايديدز في سجله المرعب عن طاعون أثنيا قبل 2000 سنة.

لا بد أن الناس الجائعين تدفقوا على غاردار، ولم يستطع الزعماء ومسؤولو الكنيسة منعهم من ذبح آخر الأبقار والأغنام. تم استهلاك موارد غاردرا، التي ربما كانت تكفي لإطعام قاطنيها إذا تم إبعاد كل الجيران عنها، في الشتاء الأخير عندما حاول الجميع الصعود إلى قارب النجاة المكتظ؛ وأكل الناس الكلاب وصغار الماشية وقوائم الأبقار كما حدث مع نهاية المستعمرة الغربية.

تخيلت صورة لغاردار مثل مدينتي لوس أنجلوس سنة 1992، أثناء ما يدعى أحداث شغب رودني كنغ، عندما أثار قرار تبرئة رجال شرطة، بعد محاكمتهم بتهمة ضرب شخص مسكين ضرباً مبرحاً، آلاف الأشخاص الغاضبين من الأحياء المجاورة والذين خرجوا لنهب المتاجر والأحياء الثرية. لم تستطع الشرطة التي فاقها المحتجون عدداً فعل شيء أكثر من وضع قطع من شرائط البلاستيك الأصفر التي تحذر من عبور الشوارع المؤدية إلى الأحياء الثرية، في إشارة لا طائل منها لإبقاء السارقين بعيداً.

نرى بشكل متزايد ظاهرة مشابهة على نطاق عالمي اليوم، عندما يقوم مهاجرون غير شرعيين من دول فقيرة بالتدفق على قوارب نجاة مكتظة تمثلها الدول الغنية.

صورة 1: نهر بيتروت، مونتانا.

صورة 2: حقل علف مروي في وادي بيتروت

صورة 3: وديان وغابات في وادي بيتروت.

صورة 4: منجم زورتمان-لاندوسكي المهجور الآن، والذي كان أول منجم في الولايات المتحدة يتم فيه تجريب تقانة استخلاص التبر الفقير بالذهب على نطاق واسع باستعمال السيانيد.

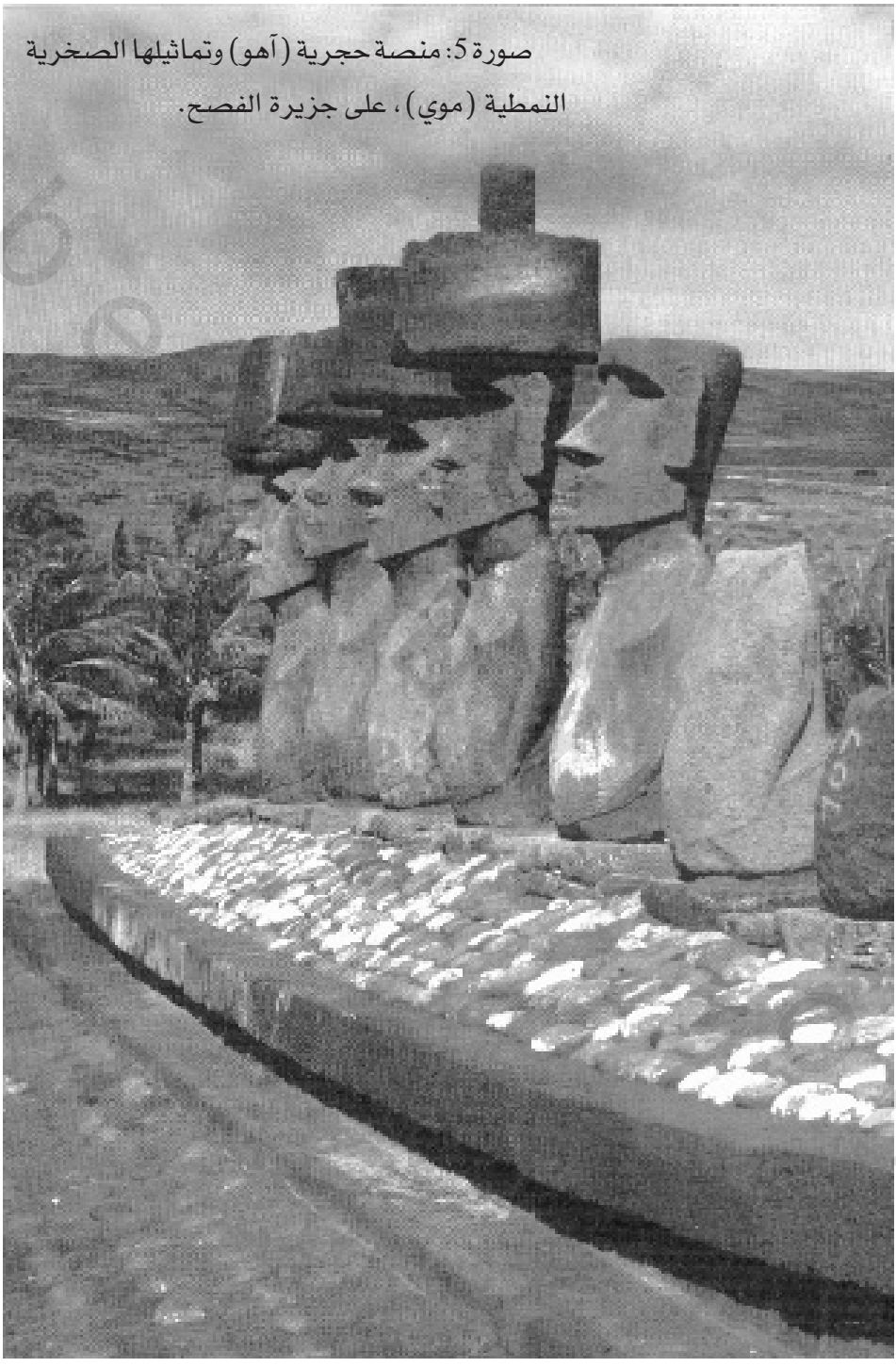

صورة 5: منصة حجرية (آهو) وتماثيلها الصخرية النمطية (موي)، على جزيرة الفصح.

صورة 6: الطبيعة المتصحرة تماماً في جزيرة الفصح وفوهات براكينها الخامدة، والتي كانت الغابات تغطيها سابقاً. الفوهة الأكبر هي رانو راراكو، موقع المقلع الحجري الرئيسي. البقعة الصغيرة من الأشجار في الوسط هي مزرعة حديثة من أشجار غير أصلية.

صورة 7: منظر آخر من الأرض التي كانت تملؤها الغابات سابقاً، وأصابها تصحر كامل اليوم وفوهات براكينها الخامدة.

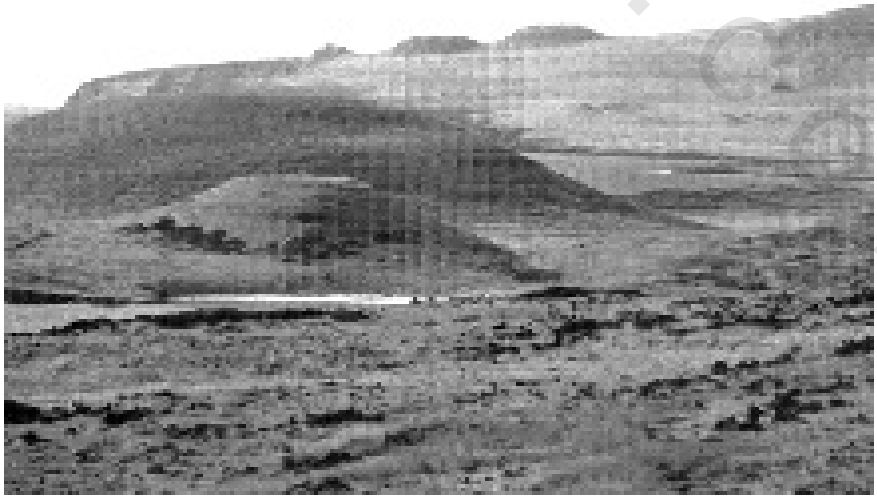

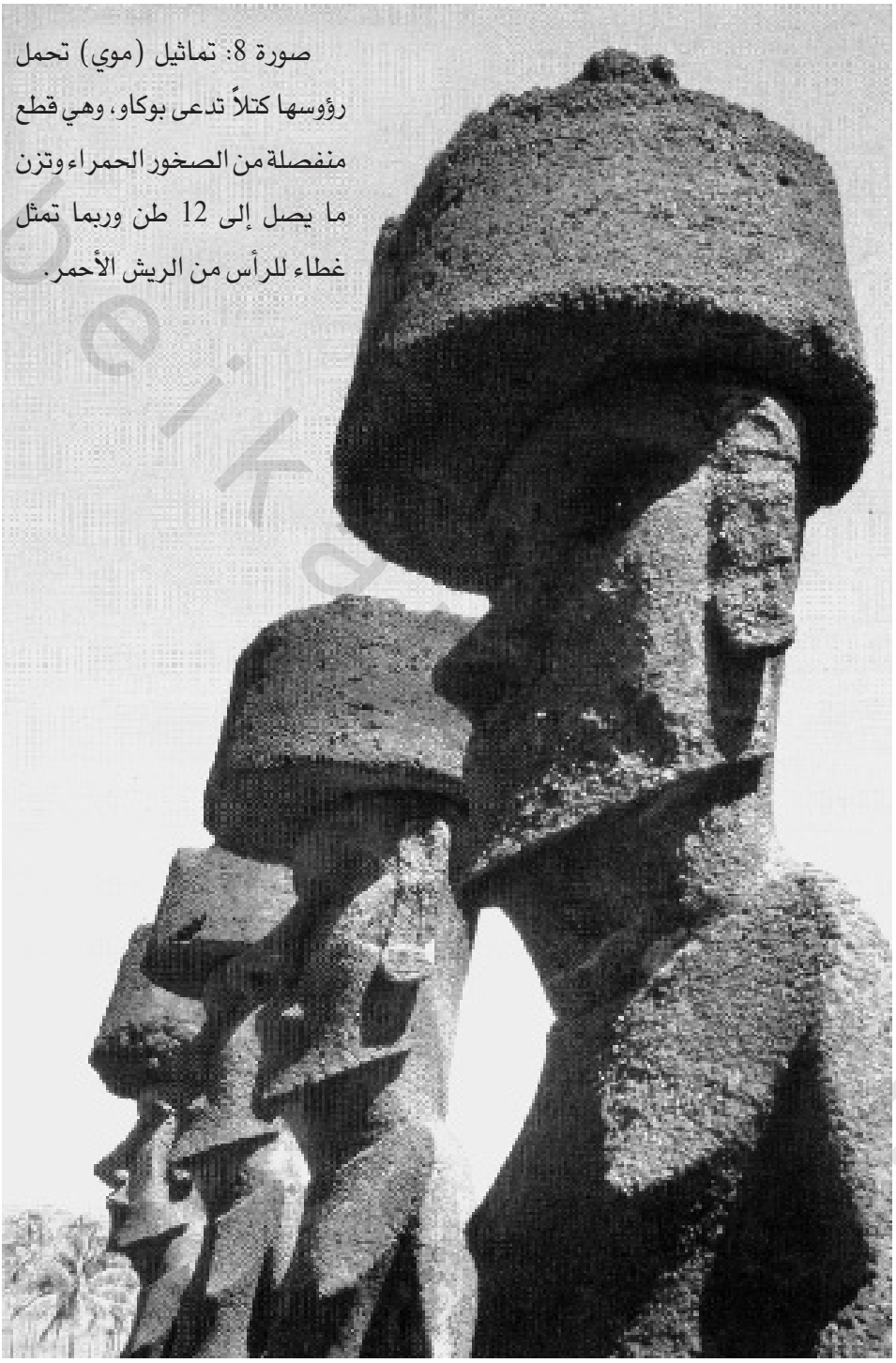

صورة 8: تماثيل (موي) تحمل رؤوسها كتلاً تدعى بوكاو، وهي قطع منفصلة من الصخور الحمراء وتزن ما يصل إلى 12 طن وربما تمثل غطاء للرأس من الريش الأحمر.

صورة 9: منظر جوي لوادي تشاو المتصحر الآن، مع آثار قرية بونيتو، أكبر موقع أنسازي سابقاً التي ترتفع أبنيتها خمسة أو ستة طوابق.

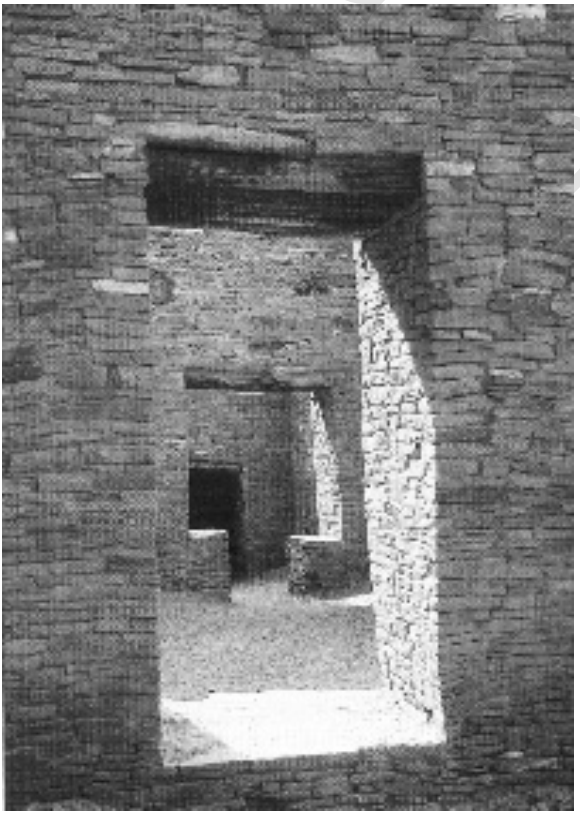

صورة 10: نظرة قريبة على آثار الأناسازي في وادي تشاو المتصحر الآن.

صورة 11: بوابة أناسازي، وتظهر فيها تقنيات بناء الحجارة الصغيرة (دون إسمنت).

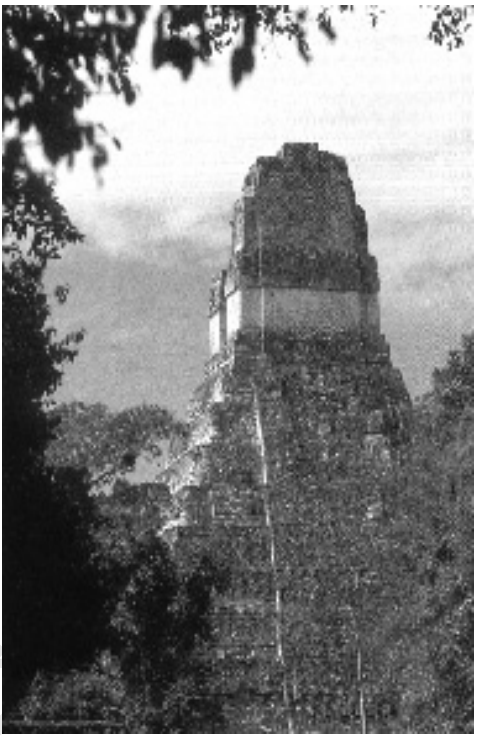

صورة 12: معبد بجدران شديدة الانحدار في مدينة المايا تيكال، والتي هُجرت قبل ألف سنة مضت وغطتها الغابات تماماً، وتم إزالة بعضها عنها.

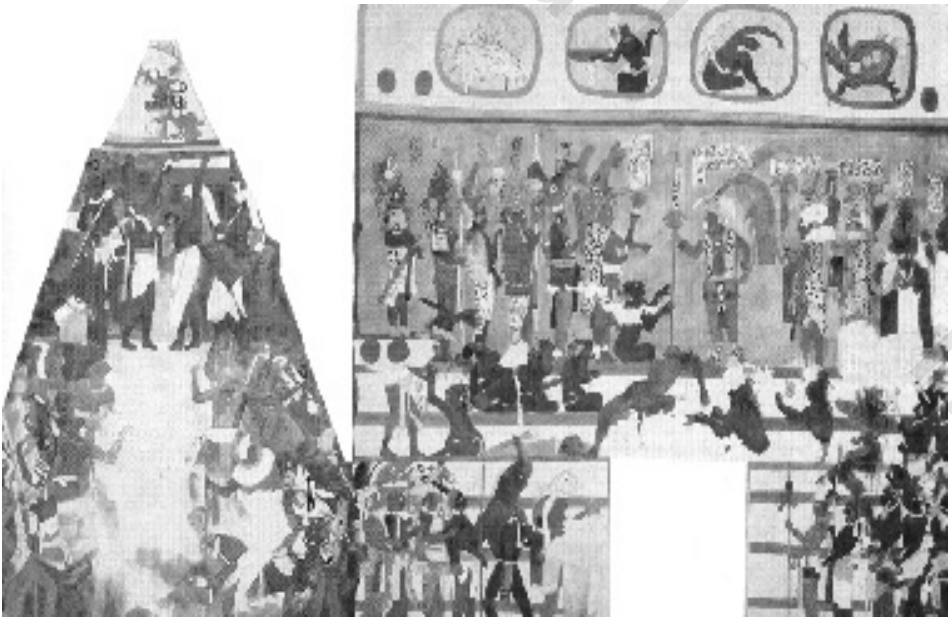

obeikandl.com

صورة 13: في موقع تيكال، حجر منقوش مغطى بالكتابات. كان نظام التدوين الوحيد الذي تطور في العالم الجديد في حقبة ما قبل كولومبس في أمريكة الوسطى، المنطقة التي تضم وطن المايا.

صورة 14: نسخة عن رسم جداري في الغرفة 2 في موقع الماي في بونامباك.

صورة 15: كنيسة هفالسي الحجرية، التي بناها اسكندنافيو غرينلاند في المستعمرة الشرقية حوالي سنة 1300 ميلادية.

صورة 16: أرض أيسلندا التي تعرضت للتعرية نتيجة التصحر ورعي الأغنام.

صورة 17: ممر إيرك البحري في غرينلاند، الذي تتناثر فيه قطع الجليد وتقع عليه براتاهيد، واحدة من أغنى مزارع الاسكندنافيين في المستعمرة الشرقية.

صورة 18: صياد اسكيمو مع كاياك ورمح، وهما وسيلتا صيد محليتين وفعّالتين واللتين رآهما بالتأكيد اسكندنافيو غرينلاند لكنهم لم يعملوا بهما.

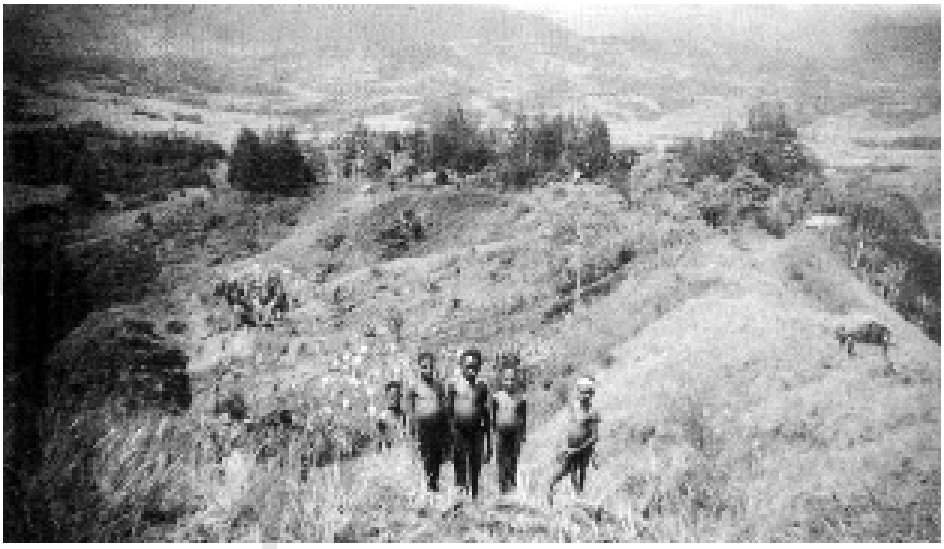

صورة 19: أرض زراعية يقطنها عدد كبير من السكان في وادي واجي، في هضاب غينيا الجديدة. كانت قد تعرضت لتصحر كبير، لكن الناس بدأوا قبل 1200 سنة زراعة أشجار محلية في القرى والحدائق هنا للحصول على الخشب اللازم للبناء والوقود.

صورة 20: مناطق الغابات المحيطة بجبل فوجياما. نتيجة للبدء في تطبيق إدارة صارمة للغابات منذ قرون مضت، اليابان دولة من العالم الأول تمتلك أعلى نسبة (74%) من الأرض المغطاة بالغابات، رغم أن الكثافة السكانية فيها تعد من الأعلى في العالم.

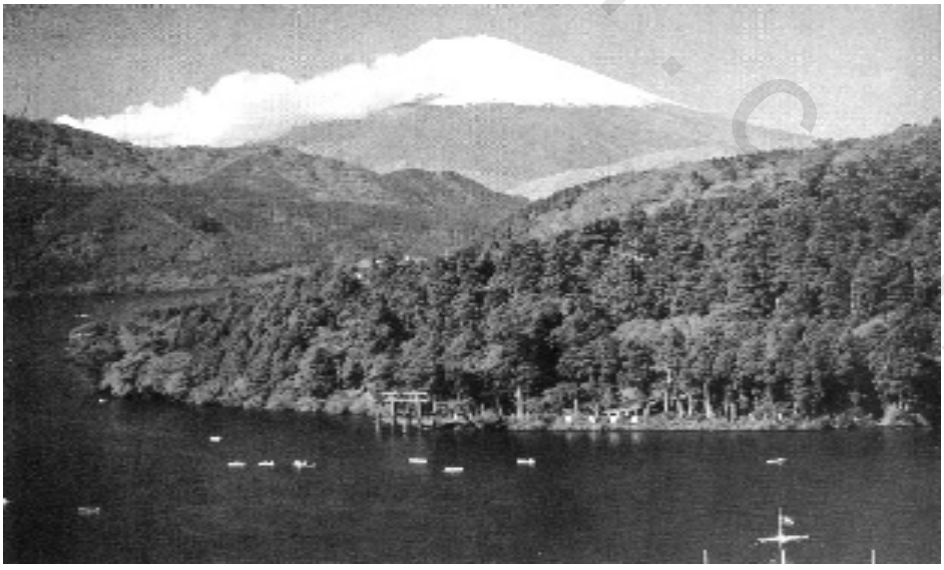

صورة 21: بضع عشرات من حوالي مليون ضحية لمذابح الإبادة الجماعية سنة 1994 في رواندة.

صورة 22: أصبح تسعة من عشرة ملايين رواندي لاجئين نتيجة مذابح الإبادة الجماعية سنة 1994.

صورة 23: أرض تغطي جزء منها الغابات في جمهورية الدومينيكان، التي تشغل الجزء الشرقي من جزيرة هسبانيولا، وأغنى بعدة مرات من فيجي.

صورة 24: الأرض المتصحرة تماماً تقريباً في أفقر بلد في العالم، فيجي؛ والذي يشغل الجزء الغربي من جزيرة هسبانيولا.

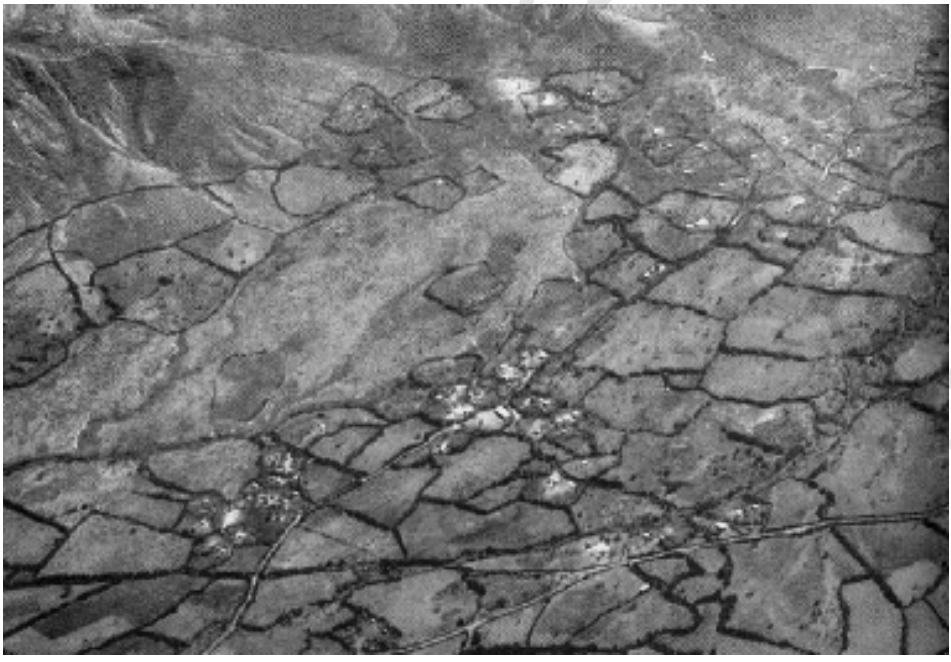

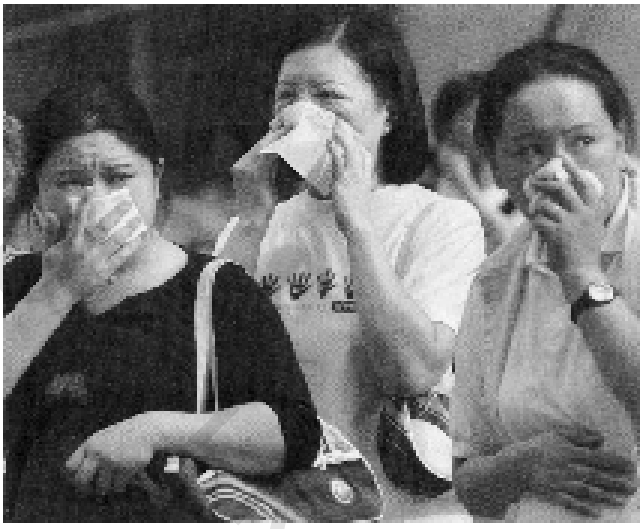

صورة 25: سكان المدينة في الصين يحمون أنوفهم من أسوأ تلوث للهواء في العالم.

صورة 26: تعرية شاملة كانت قد ضربت مناطق كبيرة من نجد لويس في الصين.

صورة 27: قمامة إلكترونية مستوردة إلى الصين والتي تمثل نقل التلوث من العالم الأول إلى العالم الثالث.

صورة 28: رواسب ملحية سطحية، شكل من الملوحة، على مجرى أطول أنهار أستراليا موراي.

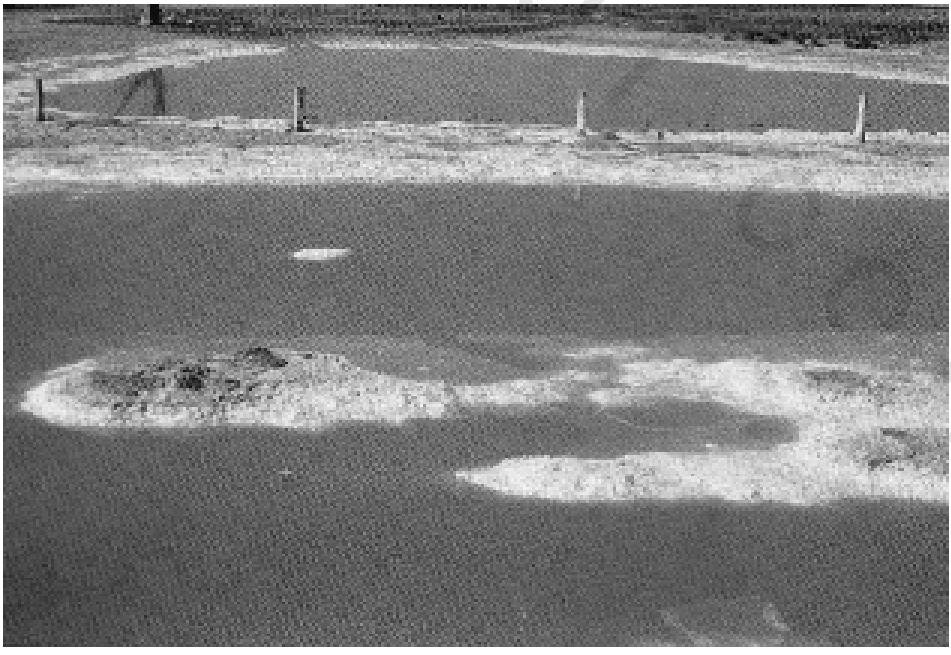

صورة 29: كارثة الأغنام التي تستهلك الطبقة النباتية وتساهم في التعرية في أستراليا.

صورة 30: كارثة الأرانب التي تستنفد الطبقة النباتية وتساهم في التعرية في استراليا.

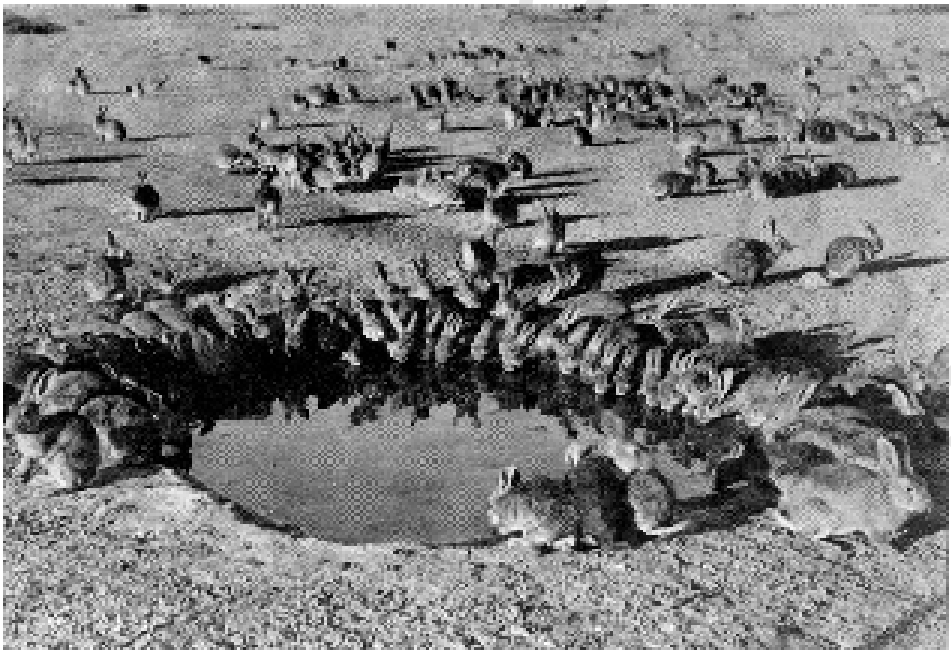

صورة 31: كودوز، نوع سريع النمو من النباتات والتي تخنق الطبقة النباتية الأصلية في غابات أمريكة الشمالية.

صورة 32: الرئيس جون ف. كينيدي ومستشاروه يفكرون خلال أزمة الصواريخ الكوبية، عندما تعلموا من أخطائهم خلال أزمة خليج الخنازير وتبنوا أساليب أكثر فاعلية في عملية اتخاذ قرار جماعي.

صورة 33: واحدة من أشهر الكوارث الصناعية وأكثرها كلفة خلال آخر 20 سنة: الحريق الذي نشب سنة 1988 في منصة شركة النفط الغربية بيبر ألفا في بحر الشمال وأدّى إلى مقتل 167 شخصاً وتكبيد الشركة خسائر مادية فادحة.

صورة 34: حالة أخرى من أشهر الكوارث الطبيعة وأكثرها كلفة في آخر 20 سنة: اثنتان من ضحايا تسرب كيماوي من مصنع للكيماويات في بهوبال، الهند والذي أدّى إلى مقتل 4000 شخص وكلف في نهاية المطاف يونيون كارباید وجودها كشركة مستقلة.

صورة 35: عدد من صور الأقمار الصنعية المأخوذة لكل منطقة. إضاءة بعض المناطق (خاصة الولايات المتحدة، أوروبة، واليابان) أكبر في الليل من مناطق أخرى (معظم إفريقية، أمريكة الجنوبية واسترالية). تتناسب هذه الفروق في الإضاءة الليلية واستهلاك الطاقة الكهربائية مباشرة مع الفروق في استهلاك الموارد بشكل عام، إنتاج النفايات، ومستويات العيش بين العالمين الأول والثالث. هل سيكون ممكناً الحفاظ على مثل تلك الفروق؟

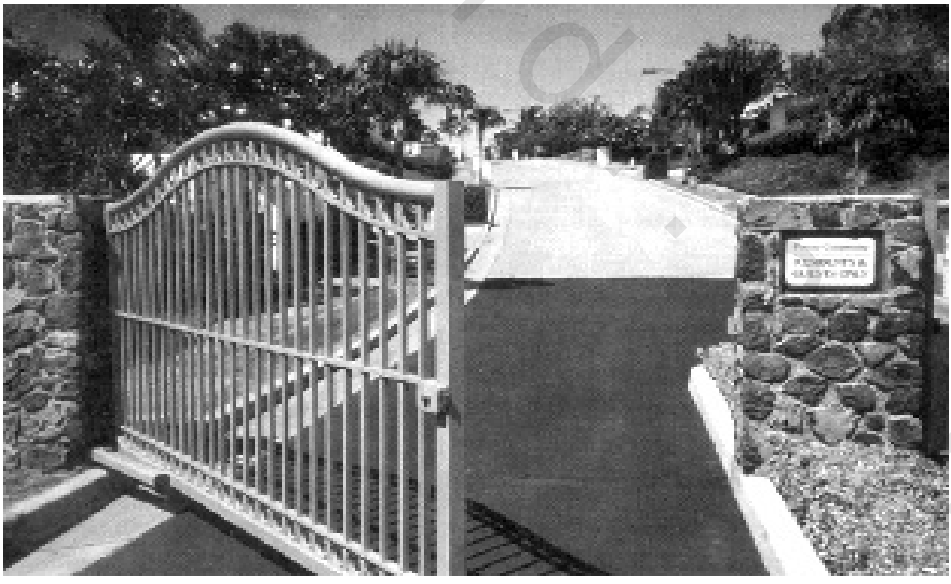

صورة 36: جماعة ميسورة تعيش خلف بوابة والتي يستطيع أفرادها عزل أنفسهم عن بعض المشكلات التي تظهر في باقي أنحاء المدينة. لوس أنجلوس.

صورة 37: الطرق السريعة والامتداد الحضري الذي غطّى أرض معظم مدينتي.

صورة 38: مزيج الضباب والدخان الشهيرة به مدينتي.

صورة 39: إدارة غير ناجحة للمياه في السهول الهولندية الساحلية في فيضانات سنة 1953 التي أدّت إلى مقتل ما يقرب من 2000 هولندي.

صورة 40: إدارة ناجحة للمياه في أراضٍ هولندية جافة ومستصلحة وتقع تحت مستوى سطح البحر.

صورة 41: موهنجو دارو، آثار حضارة مدنية انهارت في وقت ما بعد سنة 2000 قبل الميلاد في وادي الهندوس فيما يعرف اليوم باسم باكستان، وربما كان ذلك بسبب تغير المناخ، جفاف الأنهار ومشكلات إدارة المياه.

صورة 42: أنكور وات، معابد إمبراطورية الخمير، في مدينة هُجرت بعد سنة 1400 ميلادية بما أصبح الآن كمبوديا، وربما كان ذلك بسبب مشكلات إدارة المياه التي أدّت إلى خفض قدرة الإمبراطورية العسكرية على مقاومة الأعداء.

ولم تعد مراقبة الحدود فعالة في إيقاف ذلك التدفق مثلما كانت حال زعماء غاردار وشريط شرطة لوس أنجلوس الأصفر. تمنحنا تلك المقارنة سبباً آخر كي لا نعدُّ مصير اسكندنافيي غرينلاند مشكلة مجتمع صغير في بيئة هشّة، ولا علاقة لها بمجتمعنا الأوسع منه. كانت المستعمرة الشرقية أكبر أيضاً من المستعمرة الغربية، لكن النتيجة نفسها، بالرغم من أنها استغرقت وقتاً أطول.

هل كان اسكندنافيو غرينلاند عاثري الحظ منذ البداية، وحاولوا العيش بأسلوب لم يكن نجاحه ممكناً، لهذا كانت مسألة وقت فقط قبل أن يتضوّروا جوعاً حتى الموت؟ هل كانوا في موقف ميؤوس منه مقارنة بكل شعوب أمريكة الأصلية التي كانت تعيش على الصيد وجمع الثمار التي شغلت غرينلاند لحقب متفاوتة عبر آلاف السنين قبل وصول الاسكندنافيين؟

لا أعتقد ذلك. تذكر أنه جاءت قبل الأسكيمو أربع موجات سابقة على الأقل من الأمريكيين الأصليين الذين يعيشون على الصيد وجمع الثمار ووصلوا إلى غرينلاند من الدائرة القطبية الكندية، التي تلاشت كلها واحدة تلو الأخرى. يعزى سبب ذلك إلى أن تذبذبات المناخ في القطب الشمالي أدّت إلى هجرة الأنواع الكبيرة من الفرائس الضرورية لبقاء الصيادين البشر ـ الأيائل، الفقمة، والحيتان ـ التي تقلّبت أعدادها أو هجرت لأوقات طويلة مناطق كاملة. بالرغم من أن الأسكيمو بقوا في غرينلاند ثمانية قرون منذ وصولهم، إلا أنهم كانوا أيضاً عرضة لآثار تلك التقلبات في أعداد الحيوانات. كان علماء الآثار قد اكتشفوا العديد من منازل الأسكيمو، المغلقة مثل الكبسولة الزمنية، التي تحتوي على أجساد عائلات الأسكيمو التي تضورت جوعاً حتى الموت في ذلك المنزل أثناء شتاء قاسٍ. غالباً ما كان يحدث في أوقات الاستيطان الدانمركي أن يدخل شخص من الأسكيمو إلى مستعمرة دانمركية، ويقول إنه آخر ناجٍ من مستعمرة أسكيمو تضور كل أفرادها الآخرون جوعاً حتى الموت.

مقارنة بالأسكيمو وكل مجتمعات الصيادين وجامعي الثمار السابقة في غرينلاند، كان لدى الاسكندنافيين ميزة وجود مصدر إضافي للطعام: الماشية. في الواقع، كان

الشيء الوحيد الذي يمكن للصيادين الأمريكيين الأصليين الاستفادة منه في إطار الإنتاج البيولوجي للمجموعات التي تقتات على نباتات غرينلاند هو اصطياد الأيائل (إضافة إلى الأرانب البرية، بوصفها مصدراً ثانوياً للطعام). كان الاسكندنافيون يأكلون الأيائل والأرانب البرية أيضاً، لكن إضافة إلى ذلك سمحوا لأبقارهم، أغنامهم، وماعزهم بتحويل النباتات إلى حليب ولحم. كان لدى الاسكندنافيين في ذلك السياق قاعدة أوسع كثيراً للطعام، وفرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة، من أي شعب سابق شغل غرينلاند. إن كان الاسكندنافيون، إلى جانب اصطياد العديد من الحيوانات البرية التي كانت قد اعتادت عليها مجتمعات الأمريكيين الأصليين في غرينلاند (خاصة الأيائل، والفقمة المهاجرة)، قد استفادوا أيضاً من توافر حيوانات برية أخرى كان الأمريكيون الأصليون معتادين عليها (خاصة الأسماك، الفقمة المطوقة والحيتان ما عدا تلك التي تجنح إلى الشاطئ)، ربما يكونوا قد عاشوا مدة أطول على الجزيرة. كان عدم اصطيادهم للفقمة المطوقة، الأسماك، والحيتان التي لا بد أنهم رأوا الأسكيمو يصطادونها قراراً خاصاً بهم. تضور الاسكندنافيون جوعاً بوجود موارد وفيرة غير مستغلة من الطعام. لماذا اتخذوا ذلك القرار، الذي يبدو من وجهة نظرنا نحن اليوم انتحارياً؟

في الواقع، من وجهة نظرهم، وتجربتهم السابقة، لم يكن اتخاذ القرار بالنسبة للاسكندنافيين انتحارياً أكثر مما نفعله نحن اليوم. أثّرت أربع مجموعات من الاعتبارات على وجهة نظرهم. أولاً، من الصعب العيش في بيئة غرينلاند المتذبذبة، حتى بالنسبة لعلماء البيئة والزراعة المعاصرين. كان الاسكندنافيون محظوظين، أو غير محظوظين، بالوصول إلى غرينلاند في مدة كان المناخ فيها معتدلاً. لم يكونوا قد عاشوا هناك طوال ألف السنة التي سبقت وصولهم، ولم يكونوا قد اختبروا سلسلة من دورات البرد والدفء، ولم تكن هناك طريقة لتوقع الصعوبات التي ستنشأ عن تربية الماشية عندما يصبح مناخ غرينلاند بارداً. بعد أن قام الدانمركيون بإعادة إدخال الأغنام والأبقار إلى غرينلاند في القرن العشرين، اقترفوا أيضاً أخطاء مماثلة أدّت إلى تعرية التربة نتيجة الرعي الجائر، وسرعان ما تخلوا عن الأبقار. غرينلاند المعاصرة ليست مكتفية ذاتياً وتعتمد

كثيراً على المساعدة الأجنبية من الدانمرك وعلى الأموال التي تأتيها نتيجة منح تراخيص صيد الأسماك من الاتحاد الأوروبي. لهذا حتى بمعايير اليوم، كان الإنجاز الذي حققه اسكندنافيو القرون الوسطى في تطوير مزيج معقد من النشاطات التي سمحت لهم بتغذية أنفسهم طوال 450 سنة مثيراً للإعجاب وليس انتحارياً على الإطلاق.

ثانياً، لم يدخل الاسكندنافيون غرينلاند بذهن خالٍ من أي تجارب سابقة، ومنفتحين على أي حل لمشكلات الجزيرة. بدلاً من ذلك، مثل كل الشعوب الاستعمارية عبر التاريخ، وصلوا حاملين معرفتهم، قيمهم الثقافية، وأسلوب الحياة التي يفضلونها المستندة إلى أجيال من تجربة الاسكندنافيين في النرويج وآيسلندة. كانوا يعدون أنفسهم مربي ماشية، نصارى، أوروبيين، واسكندنافيين بشكل خاص. كان أسلافهم النرويجيون قد مارسوا بنجاح عمل تربية الماشية طوال 3000 سنة. كانت اللغة المشتركة، الدين، والثقافة تربطهم بالنرويج، تماماً كما ربطت هذه الخصائص المشتركة الأمريكيين والأستراليين ببريطانية طوال قرون. كان كل أساقفة غرينلاند نرويجيين تم إرسالهم إلى الجزيرة، وليس اسكندنافيين ترعرعوا فيها. لم يكن الاسكندنافيون يستطيعون دون تلك القيم النرويجية المشتركة التعاون للبقاء على قيد الحياة في غرينلاند. تصبح استثماراتهم في الأبقار، صيد نوردرستا، والكنائس مفهومة في ضوء ذلك، بالرغم من أن تلك الأشياء ربما لا تكون من وجهة نظر اقتصادية بحتة تحقق الاستفادة المثلى من طاقة الاسكندنافيين. تأثر الاسكندنافيون سلباً بالنسيج الاجتماعي نفسه الذي سمح لهم بالتغلب على صعوبات غرينلاند. كان ذلك سبباً شائعاً عبر التاريخ وفي العالم المعاصر أيضاً، كما رأينا سابقاً فيما يخص مونتانا (الفصل 1): القيم التي تشبث بها الناس بعناد شديد في ظروف غير مناسبة هي القيم نفسها التي كانت سابقاً مصدر أعظم انتصاراتهم أوقات الشدة. سنعود إلى هذه المعضلة في الفصلين 14 و16، عندما نستعرض مجتمعات نجحت باكتشاف القيم التي ينبغي التشبث بها.

ثالثاً، احتقر الاسكندنافيون، مثل النصارى الأوروبيون الآخرون في القرون الوسطى، الشعوب غير الأوروبية الوثنية وافتقروا إلى التجربة في أفضل السبل للتعامل معها.

بعد أن بدأ عصر الاستكشاف مع رحلة كولومبس سنة 1492، تعلم الأوروبيون طرقاً مكيافيلية (منهج الغاية تبرر الوسيلة) في استغلال شعوب أصلية لمصلحتهم، بالرغم من الاستمرار في ازدرائهم. لهذا رفض الاسكندنافيون أن يتعلموا من الأسكيمو وربما يكونون قد تصرفوا معهم بطرق جلبت عليهم عداوتهم. اختفت العديد من المجموعات من الأوروبيين لاحقاً في القطب الشمالي بشكل مشابه نتيجة تجاهل أو معاداة الأسكيمو، وكان أبرزها مجموعة تضم 138 بريطانيةً من بعثة فرانكلين الاستطلاعية سنة 1845، والذين ماتوا جميعاً عندما كانوا يحاولون عبور مناطق من الدائرة القطبية الكندية المأهولة بالأسكيمو. كان المستكشفون والمستوطنون الأوروبيون الذين حققوا أفضل النجاحات في القطب الشمالي أولئك الذين تبنوا أساليب الأسكيمو على نطاق واسع، مثل روبرت بيري ورونالد أموندسن.

أخيراً، كانت السلطة في غرينلاند الاسكندنافية متمركزة في القمة، بأيد الزعماء ورجال الدين. كانوا يمتلكون معظم الأراضي (بما في ذلك أفضل المزارع)، القوارب ويسيطرون على التجارة مع أوروبة. اختاروا تخصيص الكثير من تلك التجارة لاستيراد سلع تمنحهم مكانة مميزة: سلع كمالية للأسر الثرية، مثل الملابس والحلي لرجال الدين، والأجراس والزجاج الملون للكنائس. كان من ضمن الأعمال التي خصصوا لها بعض القوارب الصيد في نوردرستا، من أجل الحصول على السلع الكمالية (مثل العاج وجلود الدببة القطبية) لدفعها ثمناً لتلك المستوردات. كان لدى الزعماء حافزين لتربية قطعان كبيرة من الأغنام التي قد تكون أضرت بالأرض نتيجة الرعي الجائر: كان الصوف المادة الرئيسة الثانية التي تصدّرها غرينلاند وتدفعها مقابل مستورداتها؛ وكان يتم دفع المزارعين المستقلين في الأرض التي تعرضت لرعي جائر إلى استئجار أراضٍ أخرى، وأن يصبحوا بالتالي تابعين لأحد الزعماء في منافسته مع زعماء آخرين. كانت هناك الكثير من الابتكارات التي ربما تحسّن الحالة المادية للاسكندنافيين، مثل استيراد حديد أكثر وسلع كمالية أقل، تخصيص المزيد من القوارب للقيام برحلات إلى ماركلاند للحصول على الحديد والخشب، ونسخ (من الأسكيمو) أو ابتكار قوارب مختلفة وتقنيات صيد متنوعة. لكن كان يمكن لتلك الابتكارات أن تهدد سلطة، مكانة ومصالح الزعماء

الضيقة. في مجتمع غرينلاند الاسكندنافي الضيق الذي يعتمد أفراده على بعضهم، كان الزعماء في موقع يخولهم منع آخرين من اختبار مثل تلك الابتكارات.

لهذا نشأ عن بنية المجتمع الاسكندنافي نزاع بين المصالح قصيرة الأمد لأولئك الذين يمتلكون السلطة، والمصالح بعيدة الأمد للمجتمع ككل. تبين أن معظم ما عده الزعماء ورجال الدين ثميناً كان ضاراً بالمجتمع في النهاية. بالرغم من ذلك كانت قيم المجتمع متأصلة في جذور قوته إضافة إلى نقاط ضعفه. نجح اسكندنافيو غرينلاند فعلاً في إنشاء شكل فريد من المجتمع الأوروبي، وفي الاستمرار طوال 450 سنة كأبعد بقعة أوروبية. ينبغي بنا نحن الأمريكيين المعاصرين ألا ننعتهم بسرعة كبيرة بالفاشلين لأن مجتمعهم دام في غرينلاند مدة أطول من بقاء مجتمعنا الناطق بالإنكليزية في أمريكة الشمالية حتى الآن. أخيراً، وجد الزعماء أنفسهم دون أنصار. كان آخر حق حصلوا عليه لأنفسهم امتياز أن يكونوا آخر من يتضور جوعاً حتى الموت.

obeikandl.com